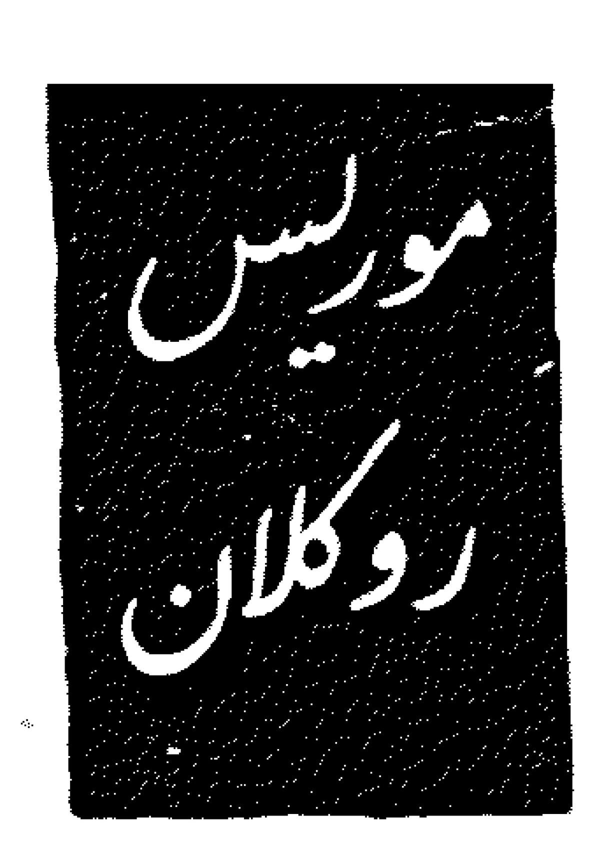


تاريخ علم النفس



تاريخ علم النفس

موريس روكلان

استاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية
باريس - السربون



ترجمة

علي زيعور

دكتور في الفلسفة وعلم النفس
دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد من باريس

علي مقلد

دبلوم الدراسات العليا في العلوم المالية
مجاز في الحقوق

منشورات عويدات
بيروت لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة
لدار منشورات عويدات
بيروت – لبنان

الطبعة الاولى : كانون الثاني (ينـاير) ١٩٧٢

مقـــدمة المترجمين

يعتبر هذا الكتاب من خير الكتب ، وافضلهـــا ، التي تبحث في تاريخ علم النفس ، والتي تتناول تناولاً مؤالفاً وتركيبياً ، لأشهر ميادين هذا العلم الانساني الرحب الجنبات،والذي يعود به التاريخ ، اذا أُخذ من الوجهة العلمية الصرفة ، إلى المائة سنة الاخيرة .

لا ريب في أن عراقيل من نوع ما ستنتصب في وجـــه القارىء ، يتجلى معظمها في التكثيف والعرض التركيبي للمعطيات . إذ قد يبدو كأن صديقنـــا واستاذنا الجليل البروفسور م. روكلان يقدم عمله هنا للمتخصص، للمطلع قبلاًعلى علم النفس بمدارسه وميادينه ..، أما العراقيل التي قـد تنجم احياناً عن الترجمة فاني لا اعتقد انها ، هنـــا ، ذات شأن بالغ اذ ، كما سيلاحظ ، بذلنا قصارى جهدنا بغية تفاديها أو تلافي ما في الوسع بإضفاء مسحـة السلاسة والبساطة على التعابير الاعجمية المعقدة في احايين عديدة .

من هنا ايضاً ، لا غنى عن التطرق السريـع إلى موضوع اللغة العربية وعـلم النفس : لم تكن هناك مشكلة ذات بال ، طيلة العمل هذا ، بهذا الصدد . لكن ذلك لا يعني عدم وجود صعوبات آيلة إلى المفرداتية التقنية التي قد تمسي كأداء كلما زاد الاقتراب من مشكلة عامة هي اللغـــة ازاء الآلات وازاء التخصص العلمي الدقيق جداً والرهيف .

ونحن إذ نقدم هـــذا الكتاب الثمين ــ الذي لا مثيل له بالفرنسيـــة ولا بالانجليزية ــ فاننا نتوجه به إلى طلابنـــا الجامعيين المتخصصين لا في علم النفس

فقط ، بل وكذلك الى الذين يقبلون على التخصص في الفلسفة ، في التاريخ ، في علم الاجتماع ، ولا سيما في الادب العربي .

ان المتخصصين في الادب العربي، السائرين منهم على الطريق او الذين انهوها، هم احوج الناس ، بنظرنا ، للانتفاع من ثمار العلوم الانسانية الراهنــة اذا رغبو في تناول افضل واعمق لمادة اختصاصهم وفهمها حسب منظورات نافعة وجديدة. تلك هي ايضاً حال الذين يودون ، من جهـــة عامة ، قراءة الحضارة الغربية قراءة اوضح وأجدّ وأجدى...

الأهم، نحن نسعى بترجمتنا لهذا السفر النفيس تأدية خدمة ،بل ، على الاصح، القيام بواجب تجاه طلابنا في مادة علم النفس ، ولا سيما ، تجاه رف علم النفس في المكتبة العربية .

لا بد من إجزاء الشكر للصديق الدكتور نزار الزين ، رئيس قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية ،فله علينا دين عسانا نجـد في التعبير عنه نوعاً من الاعتراف بحسن الصنيـع .

يبقى القول إن التوجيهات الثمينة والمساعدة المعنوية التي قدمها لنا المؤلف ، البروفسور روكلان ، تستوجب منا الثناء عليها والإقرار بفضلها الجـم . وفي المقدمة التي وضعها خصيصاً للترجمة العربية يتبين بجلاء مقدار المنفعـــة والغنم للعاملين في مجـــال علم النفس ، في بلادنا ، من اشتراكهم في الندوات العالمية ومساهمتهم في الحلقات الدراسية الدولية . كما انه صار من الضروري ايضاً كتابة المقالات للمجلات الاجنبية المتخصصة ، وهي كثيرة ،التي لا توصد الباب امـام أبحاث رزينة تردها من البلاد العربية القادرة على تقديم مثل هذه الاعمال .

المترجمان

مقـــدمة المؤلف

(خاصة بالطبعة العربية)

أنا سعيد ، سعادة فائقة ، بأن يكون هذا المؤلـّف الجم التواضع عن تاريخ علم النفس مقدماً للقراء باللغة العربية . لقـــد احتفظت بأطيب الذكرى عن الاتصالات التي اتاحت لي الصدفة اقامتها مع بعض علماء النفس العرب . يذهب بي الفكر خصوصاً إلى تلك المحادثات التي جرت بيني وبين البروفسور القوصي ، من جامعة القاهرة ، بمناسبة الحلقة الدراسية الدولية عن التحليل العاملي التي ادى لها مساهمة نفيسة ، والتي انعقدت في باريس ،عام ١٩٥٥ . كما يرد في خـاطري أيضاً زملائي من جامعة الجزائر الذين تسنى لي ان أسدي لهم عوناً متواضعاً .

واني لاجزي الشكر للسيد علي زيعور لتفضله بأن يترجم هذا المتن وان يقدم لي بذلك امكانية اعادة وتوسيع تلك الصلات وتلك الصداقات .

M. REUCHLIN

المدخل

لو ان علم النفس ظل ذلك الفرع من الفلسفة المخصص لـ « النفس » لكان تاريخه يبتدىء مع اوائل آثار الفكر الانساني .

إلا انه لما يمض بعد اكثر من حوالي مائة سنة على استشفاف امكانية وجود علم نفس علمي ، يكتفي ، عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة ، بدرس ردود الفعل عند الكائنات العضوية الكاملة في مختلف ظروف البيئة المحيطة بها. ومنذ ذلك التاريخ اصبحت مهمة عالم النفس تنحصر في العمل على إحداث تغيير بشكل منتظم وممذهب ، في هذه الظروف ، بغية ايضاح « القوانين » التي تتحكم في ردود فعل هذه الاجسام العضوية (انسان او حيوانات) . وفي الحالات التي لم تكن هذه التغييرات التجريبية ممكنة التحقيق ، لاسيما في حالات علم النفس الانساني ، كان العالم النفساني يبذل جهده ، على الاقل ، وقدر المستطاع ، في ان يستعمل الملاحظات التي كان يمكنه استقاؤها .

سوف لن يعنينا هنا إلا مسألة هذه السيكولوجيا التي كانت قد وصفت بـ « الجديدة » خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهي تتميز عن السيكولوجيا الفلسفية ، لا بفرضها فقط بل وايضاً بمنهجها ، الذي هو منهج بقية العلوم : فهو منهج يفترض وضع الفرضيات موضع التجربة ، تجاه الوقائع الثابتة ثبوتاً موضوعياً ، اي بشكل يمكّن اي مراقب من ان يتحقق منها ، شرط ان يكون ملماً باستعمال التقنيات التي استعملت لاستثبات هذه الوقائع . اما فيما خص نفس هذه الفرضيات التي ينبغي اثباتها ، فيبدو انها كانت ، في

بداية الفترة التي تعنينا ، موروثة ، بصورة مباشرة ، عن الاهتمامات الفلسفية السالفة . لم يكن هناك مجال للتردد ، في البدء ، في محاولة اجراء معادلة بشكل تجريبي ، او مقـارنة ، حول علاقات الجسد بالنفس ، ثم البحث عن وجود او فقدان حلقة التتابع في سلسلة الكائنات الحية ، وبالاخص بـين الانسان والحيوان .

لكنه سرعان ما تبين للباحثين ان هذه المسائل ، المطروحة بهذا الشكل ، لم يكن لها محتوى علمي ، وان الاهتمامات التي تدور حولها هذه المسائل ، يجب ان تترجم بكلمات اخرى ، اذا اريد لها الاسلوب العلمي ، وان هـذه الترجمة تتطلب عملاً صبوراً لحل مسائل اكثر تواضعاً وسهولة من هـذه الاهتمامات. فاتجهت معظم الاعمال العلمية ، في مجال السيكولوجيا ، نحو تجميع الوقائع المستقرة الثابتة ، عن ناحية محددة ومعينة .

وتضاعفت الابحاث بسرعة فائقة لاستكشاف مجـال سرعان ما تبين عظم اتساعه . اذ كان يجب في الواقع ان يتناول البحث درس الحيـوان ودرس الانسان ، وان ينظر إلى الانسان في صفاته العامة وكذلك ايضاً في الفروقات التي تمايز الافراد عن بعضهم البعض ، وان يدرس المريض ، والانسان السوي ، والطفل ، والبالغ ، ثم الانسان المنفرد والانسان المنضوي ايضاً في الزمر الاجتماعية المتعددة التي تحتويه . وادى اتساع هذه المسائل وتشعبها إلى قيـام تشعب في المناهج ، حتى اصبح من الضروري اليوم التفريق بين ميادين مختلفة في علم النفس. وهكذا يمكننا على التوالي معالجة تاريخ السيكولوجيا «التجريبية» و«الحيوانية» و « التباينية » و « المرضية » و « المنشئية الوراثية » ثم « الاجتماعية ».وسنشير ايضاً إلى التطبيقات العملية الاكثر اهمية لهذه الفروع من البحث .

في أي نموذج من المشاكل تخصصت، بالتدريج ، كل منها ، هذا ماسيظهر فيما يلي من هذا البحث . إلا انه يجب ان يظهر فيه ايضاً وحدة بعض الاصول وبعض التأثيرات وبعض التطورات . ويتساءل بعض العلماء ، بعد تجزئة ميـدان علم

النفس هذه التجزئة الكبيرة : اليست وحدته في درب الزوال بعد ان تم الإجماع على أن القضايا الإنسانية هي ، في اساسها ، قضايا معقــدة تركيبية ، يمكن أن تحل فقط بتكاثف جميع العلوم الإنسانية ؟ لكن ، من جهة اخرى ، هل يمكن السير عكس قانون التخصص ، أي تقسيم العمل ، هذا القانون الذي يبدو انه يتحكم بالعمل العلمي تحكماً لا مناص منه ولا انفــكاك كما هو الحـــال في العمل الصناعي ؟

قد يساعد إجهاد الفكر في التاريخ بشكل اقوى مما حصل هنا ، على التغلب على هذه المشكلة الاحراجية . ان وجود هــذه القضية المطروحة هو الى حد ما في اساس هذا المؤلـّف وهو من جملة الامور الموجهة له .

من المتواتر ، في التأريخ ، اعتماد القاعدة الحكيمة القائلة بعدم ذكر مؤلف حي ولكن ضيق المجال الزمني المتاح هنا يمنع مع الأسف من تبني هذه القاعدة. من جهة ثانية ، بلغت كثرة الاعمال المعاصرة حداً جعلنا عاجزين ايضاً ، وهذا ان اردنا ، عن ذكر جميع المؤلفين الأحياء ، واذن فلنأمل أن يشفع لنــا سوء الوضع الذي نحن فيه لدى من اغفلنا ، بغير حق ، ذكرهم هنا .

ومن جهة اخرى ، سيعلم القارىء ، من مجرد النظر إلى عــدد المؤلفين المأتي على ذكرهم انهم لم يراجعوا بامعان وتمحيص . واذن ، فالمؤلف هنا لن يربح شيئاً من جراء اخفاء مستقياته ، فيما يتعلق ببعض النقاط ، من عــدة مؤرخين اكثر تخصصاً ، ورد ذكر بعضهم في حواشي هـــذا الكتاب . وككل الذين يعنون بتاريخ علم النفس فقد انتفــع المؤلف على نطاق واسع من الكتاب الموسوعي المعرفة الذي وضعه أ . ج . بورنغ E. G. Boring (١٨٨٦ – ١٩٦٨) .

١

علم النفس التجريبي

١ - منشأ القضايا والمناهج

٢ - الرواد

٣ - المؤثرات اللاحقة

٤ - التطور الحديث

أ ـ منشأ القضايا والمناهج

إن الاعمال الراهنة التي تشكل مجال علم النفس التجريبي هي الوريثة المباشرة تماماً للأعمال التي طبعت ، بوجه عام، ظهور فرع جديد، متميز عن السيكولوجيا الفلسفية ويرنو إلى ان يتميز عن هذه ايضاً باستخدامه لنعت هو : « التجريبي». ومنذ ان سببت هذه السيكولوجيا الجديدة نشوء فروع متخصصة لها ، اصبح استعمال هذا النعت سبباً في وقوع الإبهام والإلتباس . فمجال السيكولوجيا التجريبية ، الذي انحصر بدرس الإنسان السوي في اوضاع تتحقق مختبرياً ، ليس هو المجال الوحيد ، اليوم ، الذي يمكن استكشافه بالمنهج التجريبي . ذلك بأن هذا الاسلوب يستعمل ايضاً في السيكولوجيا الحيوانية ، وفي سيكولوجيا الطفل ، وفي السيكولوجيا الاجتماعية ، الخ ..

إن ظهور هذا الاسلوب في علم النفس يمكن ان يعتبر ، بوجه عام ، تمظهراً لتطور عام مشترك بين جميع فروع المعرفة . لكن الباعث عليها كان ، على وجه التدقيق، تطور بعض العلوم الفيزيائية وتطور علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) .

من المعلوم أن القياسات او الملاحظات ، في العلوم الفيزيائية ، تتم بواسطة سلسلة متفاوتة التعقيد من الآلات تُدرج بين الظاهرة والملاحِظ . وحواس الملاحظ نفسه يمكن أن تعتبر آخر هذه الأدوات . ان التقدم الملحوظ في اساليب القياس والملاحظة ادى ، في الكثير من الحالات ، إلى الحد من دور هذا المراقب ، في حين ان هذا الدور ، كان في القرن التاسع عشر ، ضخماً . كما كان الحال مثلاً ، في ملاحظة اللحظة التي يمر فيها نجم في وسط عدسة المنظار على اساس طريقة برادلي .

لقد لاحظ بسّيل Bessel ، وهو فلكي الماني ، حوالي سنة ١٨٢٠ ، بهذه المناسبة ، ان الأخطاء التي يرتكبها علماء الفلك الذين يقومون بهذه الملاحظة ليست مما لا يمكن التنبؤ به : فلكل نمطه الخاص من الاخطاء ، التي يقع فيها دائماً . حتى قيل أن لكل « معادلته الشخصية » . وفتحت هذه الملاحظة بدون شك المجال للانتفاع منها في علم الفلك ، اذ أتاحت امكانية تصحيح الملاحظات التي يدونها كل فرد . لكنها طرحت ايضاً قضية جديدة امام العالم الفيزيولوجي وامام العالم النفساني : كيف يمكن تفسير هذا الاستقرار الفردي ؟ وكانت هذه المشكلة احدى مواضيع الابحاث « الكلاسيكية » في ذلك العصر حيث انجز الفيزيولوجيون العاملون في الجهاز العصبي ، مدفوعين بموضوع بحثهم هذا ، لان يكونوا سيكوفيزيولوجيين وعلماء نفس بآن واحد .

سيبقى دائماً من الصعب نوعاً ما تحديد المجالات المختصة بكل من علم النفس والفيزيولوجيا تحديداً دقيقاً : يشهد على ذلك وجود فرع متوسط بينهما هو السيكوفيزيولوجيا . ويتناول التفريق بينهما درجة العمومية في ردود الفعل التي يتناولها الدرس ، اذ يبدأ مجال العالم النفساني ، مبدئياً ، عندما يكون الجهاز العضوي واقعاً برمته تحت تغيرات الوسط . ولا غرو فان مهمة الجهاز العصبي هي بالضبط ، إيجاد التنسيق والتكامل بين ردود للفعل وبين المثيرات التي تصيب الجهاز العضوي كله (شرنغتون ، ١٨٥٧ - ١٩٥٢). ويُفهم اذن ، بعد هذا ، كيف يصطدم الفيزيولوجي (عالم الوظائف العضوية) وهو يدرس الجهاز العصبي ، بالمشاكل التي تهم ايضاً العالم النفساني ، وكيف ايضاً ، من وجهة نظر تاريخية ، استطاعت السيكولوجيا التجريبية ان تحصل ، في جملة ما حصلت عليه عند نشأتها ، على بعض القضايا وبعض النتائج وبعض الاساليب التي ابتدعتها الفيزيولوجيا التي وصلت قبلها إلى درجة العلم التجريبي .

هذا ويستحيل بكل تأكيد وبداهة ، اجمال ما وصلت اليه فيزيولوجيا الجهاز العصبي من تطور ومن مكتسبات ، اجمالاً يكون بشكل متماسك وفي

جملة اسطر . سوف لن نبحث هنا غير بعض الوقائع الاستشهادية التوضيحية المتعلقة بمستويات ثلاثة : تكوين الانسجة العصبية وخصائصها الأولية ، فيزيولوجية الاحساسات ، فيزيولوجية الدماغ .

لقد اكتُشف تنظيم الانسجة العصبية من الخلايا ، بفضل التحسينات البصرية التي أُدخلت على المجهر ، وبفضل التحسينات الكيميائية في طرق التلوين ، وذلك فيا بين سنة ١٨٣٣ ، وهو التاريخ الذي اثبت (ريماك) فيه ،ان المادة الرمادية في الدماغ هي خلوية ،وسنة ١٨٨٩ ،وهي سنة اكتشف فيها (كاغال) وحدة الخلية العصبية وأليافها (العَصَبة)، ودور اماكن الاتصال بين العصبات (الوصلات Synapses) وتسير خلال هذا الجهاز من الخلايا المتجاورة، الارتعاشات ؛وكان يظن ، بادىء الأمر ، أن سرعتها كبيرة جداً إلى درجة أنها لا تقاس (تساوي ٦٠ مرة سرعة الضوء حسب تقديرات البعض) . لكن التقدم في أساليب تسجيل التقلصات العضلية هو الذي اتاح لـ «هلمولتز»أن يبين،حوالي سنة ١٨٥٠، أن هذه السرعة هي أبطأ من ذلك بكثير ، وانها ادنى من سرعة الصوت ، وانها بالتالي خاضعة للقياس . لا شك في ان هذه الاكتشافات التشريحية — الفيزيولوجية كانت ، بالطبع ، مهمة جداً من أجل التقدم اللاحق في حقل الفيزيولوجيا نفسها : اكتشاف الخلايا في الجهاز العصبي ، وخصوصاً في الدماغ، مكّن من تقديم نوع من « النموذج » التشريحي للنظريات التي اتى بها علماء النفس الساعين لتحليل الظواهر إلى « عناصر » يجب البحث عن قوانين ترابطها. وكان من جراء القدرة على قياس السرعة ، القابلة للقياس ، في التيارات العصبية ان أمكن الوصول إلى مناهج في الدرس ، كأسلوب درس « زمن رد الفعل » (وهو الاسلوب الذي استعمله هلمولتز) ، وهي ما سنتكلم عنها .

من المهم ان ندرك ، وعلى مستوى تنظيمي اعلى ، ان فيزيولوجيا الحركة قد سبقت فيزيولوجيا الاحساسات . لان الحركة ، بالواقع ، حادث قابل للوضع تحت الملاحظة بغير مشقة ؛ بخلاف ما هو عليه حال الاحساس الذي يبدو

وكأنه ليس سوى « تجربة مباشرة » تتعلق بالفرد وحده . هـــذه الصعوبة المنهجية التي أمكن، كما سنرى ، التغلب عليها ، قد تفسر بأن دراسة الاحساس هي التي تكون قد رسمت الحـــدود التي تقف عندها المناهج الفيزيولوجية ، وحددت الولوج إلى مجال آخر هو مجال علم النفس . والصيــاغة الفيزيولوجية لمشكلة الإحساس (أي وفقاً للمنهج الفيزيولوجي) يجب التفتيش عنهـــا في الإثبات الذي قام به الانكليزي بل C. Bell سنة ١٨١١ والفرنسي ف.ماجاندي سنة ١٨٢٢ ، وهو ذلك التبيان لوجود الياف عصبية احساسية مختلفـــة عن الالياف العصبية المحركة . وفي سنة ١٨٣٨ قدم ج. مولر J. Müller ، صيغة ممنهجة وممذهبة لمبدأ « الطاقة النوعية للاعصاب » : فإثارة عصب الرؤية يولّد إحساساً بالرؤية ، ولا شيئاً آخر غير ذلك ؛ كذلك الحال بكل حاســـة . وهذا المبدأ وجـــد في كتاب « الموسوعـة في فيزيولوجيا البشـــر » Handbush Der Physiologie Des Menschen ، المنشورة بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤٠ ، والتي يعالج بعض اجزائها مواضيع ستكون فيما بعد مواضيـــع ومشكلات علماء النفس . لا يمكن هنا ذكر التقدم الحاصل في المعارف النفسيـــة الفيزيولوجية المتعلقة بكل حاسة ، وبشكل مفصل . من بين الباحثـــين الذين ساهموا ، في هذا المجال ، المساهمة الكبرى ، يذكر مولر ، الذي تحدثنا عنه كعالم فيزيولوجي ، وهلمولتز الذي سنتكلم عنه مرة اخرى كعالم نفسي : هـــذا التصنيف التعسفي يعكس هنا الفترة الزمنية ويشكل موضوعاً انتقالياً بين حقلين متجاورين .

والمعارف المتعلقة بالقسم الاكثر تعقيداً من الجهاز العصبي ، وهو الدماغ ، تقدمت تقدماً واسعاً خلال الفترة التي نما فيها علم النفس العلمي . فالدماغ بـــدأ أولاً ، وبوضوح ، كعضو يلعب دوراً اساسياً في خـــدمة التفكير . ولعب في هذا المجال علم فراسة الدماغ «فرينولوجيا» الذي قام به ف.ج.غال F. J. Gall (١٧٥٨ — ١٨٢٨) دوراً مفيداً ، فهو علم يبلور الكثير من الملاحظـــات أو

التأكيدات السالفة ، وبالتالي لم يعد « الفكر » مجالاً محصوراً فقط بالعالم الميتافيزيقي فقط ، وهذا لانه ذو كيان مادي يصبح درسه تشريحياً وفيزيولوجياً موضوع اهتمام وعناية. وعلى صعيد آخر فقد اثر (غال) تأثيراً يعادل التأثير الذي احدثه هلمولتز ، عندما اثبت أن الظواهر العصبية ليست آنية ، إذن فدراسة تتابعها زمنياً ممكنة ومقبولة . لكن انماط سير عمل الدماغ كانت تفسر ، وفقاً لمقتضيات الحال ، بمذاهب مختلفة. فالبعض يعتبر الدماغ كعضو موحد تلعب مختلف مناطقه او يمكنها ان تلعب نفس الدور . وقد دافع عن مثل هذه الآراء ب. فلورنس منذ سنة ١٨٢٤ ، ثم لاشلي بعد مضي قرن . أما الآخرون فيعزون إلى كل منطقة من مناطق الدماغ دوراً خاصاً . وعرف علم فراسة الدماغ الذي نادى به غال ، والذي بموجبه يمكن تقييم مواهب الفرد بحسب شكل جمجمته – ازدهاراً كبيراً حوالي سنة ١٨٢٠ ، ولكنه لم يرتد من النظرية العلمية إلا مظاهرها وقد هاجمه بعنف ودحضه فلورنس سنة ١٨٤٢ . وجاء بروكا (١٨٢٤ – ١٨٨٠) ينادي بثبوت حادثة معينة هي ان قدم التلفيف الجبهي من شق الدماغ الايسر يشكل « مركز النطق » ، واذا اتيحت له مناسبة الاطلاع الكامل على حالة مريض لا يستطيع الكلام ، فانه لم يجد لهذا الخلل أي سبب ظاهر . وكشف دماغ المريض ، بعد موته ، عن تلف وحيد في المنطقة المشار إليها ، فاستنتج بروكا (١٨٦١) مدعاه . وقام علماء آخرون يعينون مراكز محركة واحساسية وذلك خلال السنوات التي عقبت سنة ١٨٧٠ .

هذه الدراسة للمراكز القشرية (اللحائية) اوضحت بشكل مباشر بعض المشاكل السيكولوجية ، كالتفريق بين الادراك والاحساس . وبوجه عام ادت دراسة « السيرورات العليا » ، الذكاء ، الى تعاقب بين نظريات وحدوية تنظر الى هذه السيرورات كوحدة كلية وبين نظريات تحليلية تبذل قصارى جهدها في تفكيك هذه السيرورات ذاتها الى استعدادات متمايزة ، الأمر الذي يذكّر بتناوب المفاهيم الفيزيولوجية المتعلقة بسير عمل الدماغ .

هذا ولا بد من ان نضيف هنا ان الطرائق التي استعملت في الفيزيولوجيا

لتسجيل التنفس اوالنبض وغيرهما ... ، ستستعمل بصورة واسعة من قبل علماء النفس ، وبالاخص عند دراسة الانفعال .

ربما تفسر الملاحظات التي سبقت الاشارة اليها في مجال دور العلم الفيزيائية والفيزيولوجية واثرها في تطور علم النفس السبب في اننا نجد ، غالباً ، مؤسسي علم النفس هم بالوقت ذاته ذوي ثقافة فيزيائية وفيزيولوجية. لنضف ايضاً انهم لم يبعدوا كثيراً عن الاهتمامات الفلسفية ذات العلاقة ببعض القضايا النفسية التي كانوا يطرحونها على انفسهم او التي شكلت ، في ذلك المكان وفي ذلك العصر ، علة وجود ونهاية مطاف ثقافة موسوعية. ويعود الفضل في الاعمال التي ساهمت ، مساهمة واضحة ، في ايقاظ الوعي باستقلال علم النفس ، الى علماء المان . يصعب بكل تأكيد تعيين التاريخ الصحيح لهذا الوعي انما يبدو انه تم في السنوات التي تلت سنة ١٨٦٠ ، تاريخ نشر كتاب فيشنير Elemente Der Psychophysik.

٢ ــ الرواد

كان ج. ت. فكنر (١٨٠١ - ١٨٨٧) مشهوراً كفيزيائي لامع وكعالم رياضي ، عندما اصيب سنة ١٨٣٩ بأزمة خطيرة وجهت إهتماماته نحو التفكير الميتافيزيقي في المسائل المتعلقة بالروح . ونشر نتائج أبحاثه سنة ١٨٥١ في « زندافستا » مؤكداً بشكل خاص أن الوعي Conscience منتشر في أي مكان من العالم ، وأن الأرض أمّنا هي كائن حي ، وأن الروح لا تموت . ولكي يركز مزاعمه على أساس تجريبي ، أخذ يعالج تلك المسألة المدهشة الهادفة للبحث عن المعادلة المشكّلة للعلاقة بين الروح والمادة . هذه المعادلة ، بإتاحتها الانتقال من مجال إلى آخر ، تدلل على تعادلهما ، بل وعلى توحدهما . وقد نشرت نتائج المحاولة سنة ١٨٦٠ في كتاب « عناصر البسيكوفيزيكا » .

كانت تلك العلاقة المبحوث عنها ، على وجه الدقة ، هي العلاقة التي تتقرر بين المؤثر الخارجي في أعضاء الحس (نور ، صوت ، وزن ، الخ .) ، ذي

المنشأ المادي ، وبين الإحساس ، والحاصل بواسطة هذا المؤثر ، وهو داخل في نطاق النفس . لكن كيف يمكن قياس الاحساس بذاته ؟ لكي يصل فكنر إلى ذلك استعمل النتائج التي توصل إليها عالم فيزيولوجي الماني هو فيبير Weber « ١٧٩٥ - ١٨٧٨ » ، وكان فيشنير أحد تلاميذه . لقد دلل فيبير سنة ١٨٣٤ ، في كتابه « De Tactu » ، على أنه إذا كان فرد ما يستطيع بمشقة التمييز بين وزن ٢٩ أونصة ووزن ٣٢ أونصة (إذا رازهما بيده) ، فهو كذلك يميز بالكاد أو يفرق بصعوبة ، بين وزني ٢٩ دراخمة و٣٢ دراخمة ، ذلك أن الحدة المطلقة للمثير ، وهو الوزن ، تتدنى ٨ أضعاف « الأونصة الواحدة تعادل ٨ دراخمات » ، لكن أقل تدني في الوزن ، اللازم لكي تدركه الحواس ، ظل نسبياهو نفسه (٣/٣٢ في المثل المذكور) . لقد اكتشف هذا القانون من قبل ، في مجال الابصار ، من قبل عـــالم فرنسي هو Bouger ، الذي نشره سنة ١٧٦٠ في كتاب « الأبصار حول تدرج النور »[1] .

هذا القانون هو الذى أتاح لـ فكنر إمكانية ايجاد حـل لمسألة العلاقة بين قياس الإثارة وقياس الاحساس . وقد سبق أيضاً ان كانت قد أقيمت علاقة مماثلة بين الثروة المعنوية (السعادة) والثروة المادية (الغنى) على يد عالم رياضي هو « بيرنولي Bernoulli ١٧٣٨ » وقد أخذ العالم لابلاس [2] هذه الفكرة وعالجها في كتابه « النظرية التحليلية للاحتمالات ١٨١٢ » .

وبالطبع أثارت أعمال فكنر جدلا كثيراً ؛ ولم يبق على قيد الحياة شيء من مدعياته الميتافيزيقية . إلا أن أعماله هـذه كانت السبب في إدخال القياس إلى علم النفس ، كما أنها ، في المجال التجريبي ، لحظت بداية درس الطرائق التي تتيح

---

(1) Traité d'optique sur la gradition de la lumière .

(2) Théorie analitique des probabilités .

تحديد أصغر مثير تمكن ملاحظته ، أو أصغر فرق ملحوظ بين مثيرين ، وذلك لدى شخص معين (قياس « عتبات » الإحساس) .

لا نجد في أعمال فون هـ. هلمولتز (١٨٢١ – ١٨٩٤) الاهتمامات الميتافيزيقية التي قام بها فكنر ، وكلاهما فيزيائي ، وقد عالج هلمولتز كفيزيائي علم وظائف الاعضاء ثم علم النفس . وكدّس أبحاثا تجريبية ذات صلابة ما تزال تحتفظ حتى اليوم ، وبعد مضي قرن حدثت فيه أنواع عديدة من التقدم الثوري في التقنيات ، بقيمة خاصة . تتناول أبحاثه هـــذه ، بصورة رئيسية رؤية الألوان « ١٨٥٢ » . وبوجه عام ، وبعد أن أثبت فيبير وفكنر إمكانية استعمال القياسات في مجال علم النفس ، اثبت هلمولتز خصوبة الأبحاث المنذهبة في هذا المجال ذاته .

عندما كان هلمولتز استاذاً للفيزيولوجيا في كونيغسبرغ نشر كتـــاب : « فيزيولوجية الابصار »[1] ١٩٥٦ – ١٨٦٦ . وقـــد تناول مرة أخرى ، في الجزء الثاني ، نظريته عن رؤية الألوان ، المنشورة سنة ١٨٥٢ ، والتي أخذ هلمولتز فكرتها عن ت . يونغ T. young « ١٨٠١ » . وهنا نجد أن الخاصية التي قالهـــا موّلر عن الاعصاب تمتد لتشمل الالياف التي تتركب منها هذه الأعصاب . هناك ثلاثة نماذج من الالياف تنقل على التوالي إحساسات الاحمر والاخضر والبنفسجي الصادرة عن اعضاء مستقلة في الشبكية ، أما النظرية المتعلقة بادراك الاصوات فموجودة في كتاب: Tonempfindungen « ١٨٦٣ » .

بعدها علّم هلمولتز الفيزيولوجيا في هيدلبرغ . وتَنسب أيضا نظريته إلى أعضاء مختلفة موزعـــة على طول « مرنان Resonateur » (عضو كورتي Cor ti وعلى الأخص الطبلة القاعدية) ، الاحساسات التي تحدثها أصوات ذات ارتفاعات مختلفة وحيث كل واحد من هذه الأعضاء يمتلك ليفته الخاصة داخل العصب . إذن ، فالفروقات النوعية بين الألوان أو بين الأصوات ، تُردّ إلى فروقات

---

(1) Handbuch der physiologischen optik

في الموضعة أو فروقات في البنية . وهكذا ، وبعد أن بيّن هلمولتز أن الظواهر العصبية تجري وفقـــاً لسلم زمني يتيح مراقبة تسلسلها ، وضع أيضا الفوارق النوعية في نطاق الأحداث القابلة للملاحظة المادية بأن عاد بها إلى فوارق تحديد المكان (الموْضعة).

لكن الرجل الذى قرر بصورة نهائية استقلال عـلم النفس التجريبي هو فوندت Wundt (١٨٣٢–١٩٢٠) الذي وضع أسسه ، بأعماله الضخمة ، وبالسبل التي شقتها هذه الأعمال ، ثم بتأسيسه أول مختبر لعلم النفس التجريبي عام ١٨٧٩ في ليبيزيغ ، ثم بالعديد من تلامذته الذين جاؤا يتلقون في ليبزيغ تعاليمه ومن ثم ليعودوا لتأسيس أجهزة أبحاث وتعليم مكرّسة للعلم الجديد ؛ كان بينهم العديد من الأمريكيين خـــلال العقد ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، والفرنسي ب . بوردون B.Bourdon (١٨٦٠ – ١٩٤٣) الذي علّم علم النفس في رين Rennes من سنة ١٨٩٥ إلى سنه ١٩٣١ والذي كرس حياته للأبحاث المخبرية المتعلقة خصوصاً «بالادراك البصري للفضاء» (١٩٠٢) . بل وحتى ردود الفعل ذاتها التي أثارها فوندت أدت إلى إنشاء مدارس جديدة أو إلى اكتشاف حقول أبحاث جديدة .

وبالرغم من أنه كان قد اضطر إلى درس الطب والفيزياء ، والكيمياء ، من أجل كسب معاشه ، فإن اهتماماته الرئيسية اتجهت في البدء صوب الفيزيولوجيا. وفي سنة ١٨٥٦ ، تتلمذ في برلين على يد ج. مولرّ الذي كان يهتم بدوره باستقلال الفيزيولوجيا التجريبية . وعمل كأستاذ مساعد لمادة الفيزيولوجيا في هيدلبرغ في الوقت الذي كان فيه هلمولتز استاذا فيها (١٨٥٨ - ١٨٧١) . في هذه الاثناء ترعرع اهتمامه بالفلسفة ، وفي الحين ذاته أيضاً كان يتابع عمله في مجال علم النفس الذى كان يومها قريباً جداً من الفيزيولوجيا : فدرس سنة ١٨٦١ « المعادلة الشخصية » عند علماء الفلك ، ثم نشر من سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٨٦٢ كتابه « مقالات على نظرية الادراك الحسي » Beitrage zur Theorie der Sinneswrahrnehmung.
لقـــد شكل « الادراك الحسي » الذى عولج هنا ، منذ هلمولتز

حتى أيامنا هذه ، موضوعا ،هو على التخوم بين الفيزيولوجيا وعـــلم النفس . وتقرر التمييز بين الاحساس الذي هـــو مجرد نتيجة لإثارة عضو حساس وبين الادراك الذي هو أخذ علم بالأشياء وبالحوادث الخارجية .وفي هذا التفريق يمكن أن يكمن تمييز بين سيرورات مـن « مستويات مختلفة» ، وسنتكلم عن الفائدة التي ستظهر إزاء هذه السيرورات « العليا » . ونجد في مقدمة الكتاب هذا ، أول برنامج لمادة علم النفس التجريبي . وسيوضح هذا البرنامج بصورة نهائية تقريباً في كتابه « علم النفس الفيزيولوجي» [1] الذى ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٧٣ – ١٨٧٤ ، والسادسة سنة ١٩٠٨ – ١٩١١ .

ومذاك أخذ يسيطر على نشاط فوندت العمل التجريبي . فقد عين سنة ١٨٧٥ استاذاً للفلسفة في ليبزيغ حيث أسس لها في سنة ١٨٧٩ مختبراً، وفي سنة ١٨٨١ ، مجلة أسماها « الدراسات الفلسفية »[2] التي كانت تنشر أبحاثه . كان أكثر هذه الأبحاث (تقريباً) يؤول إلى الأبحاث المخصصة للاحساسات والادراكات وبالأخص في مجال الرؤية (الربع تقريباً من مجمل أعمال المختبر) وأيضا في مجال السمع ، واللمس ، والمذاق ، وادراك الزمن ، أما بقية الأبحاث فتتعلق بالانتباه ، وبالوجدانيات (مع تسجيل النبض ، والتنفس ، الخ ..) ، وفي استعمال « منهج زمن رد الفعل » وهذا المنهج –ابتدعه طبيب العيون الهولندي «درندوس» سنة ١٨٦٨ ، وحسّنه «اكزنر» سنة ١٨٧٢ – يقوم على قياس بدقة بالغة للزمن (جزء من الثانية) الذى يجري بين وقوع المثير الحسي(نور، صوت الخ ..) وبين رد الفعل المحرك الذي يعتبر بنظر الإصطلاح التجريبي ، إشارته (قبض ملقط مثلا) . وبعد تعقيد مهمة الشخص موضوع التجربة تعقيداً تدرجياً (كأن يطلب إليه مثلا أن يتحرك فقط عند مشاهدة النور الأزرق،

---

(1) physiologische psychologie

(2) philosophische studien

في حين تساقط أنوار ذات ألوان شتى) . وبعد طرح المدة الزمنية لرد الفعل البسيط من المدة الزمنية لرد الفعل المركب المناظر له ، صار من المأمول معرفة الوقت اللازم للسيرورة الجديدة التي سببها التعقد التجريبي (التمييز بين الألوان في المثال) . وهذه الطريقة ليست غير قابلة للانتقاد إلا في الحالات التي يترجم فيها تدخل أوضاع جديدة بعملية زيادة أو جمع لا بتحول كامل في الاختبار ، وسوف تتاح لنا الفرصة للعودة إلى هذه النقطة .

وبالرغم من الدور الحاسم الذي لعبه فوندت في تطوير التجريب في مجال علم النفس ، وبالرغم من اهتماماته كعالم فيزيولوجي ، فقد استمر عمله مطبوعا بالمنحى الفكري الفلسفي . ولم يكتف فقط بكتابة مؤلفات أمثال « المنطق » ١٨٨٠ — ١٨٨٣ ، و « الأخلاق » (١٨٨٦) ، ثم « نظام الفلسفة » (١٨٨٩) ، بل أن فهمه للتجريب بالذات جعله يرى في هذا ، الوسيلة لتوضيح نظام عام مسبق عن طريق تبيان نقاط خاصة فقط ، للاستثبات بشكل اكيد ورئيسي من فرضية محدودة إلى درجة تكفي لكي يقال معها أن مثل هذا الاختبار أمر ممكن . ويرتكز مذهبه على الثنائية وعلى نظرية التوازي بين الجسد والروح . فعلم النفس ذا موضوع هو التجارب المباشرة للفرد ، وهذه التجارب يبلغ عنها عن طريق الاستبطان فقط ، وهذا منهج يقوم على أن يطلب إلى الفرد ذاته أن يصف ما يفكر فيه ، أو يحس به ، أو بكلمة مختصرة أن يصف أحواله الذاتية . وطريقته هي في جوهرها تحليلية ، إذ تقوم على تجزيء إلى عناصر ، لتلك السيرورات الواعية ، وعلى تحديد القوانين التي تتحكم في ترابط هذه السيرورات . بيد أن هذه الطريقة لا تنجح تجاه « السيرورات العليا » التي تحصل في مجالات التكيف المعقدة جداً . ذلك أن الملاحظة المقارنة للظواهر الاجتماعية تكون عند ذاك أكثر ملاءمة (وبهذا الصدد كتب فوندت ، الذي يعتبر إلى حد ما طليعة مؤسسي السيكولوجيا الاجتماعية ، مؤلفه الضخم المسمى علم نفس الشعوب Volkerpsychologie الذي ظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٠١ والعاشر سنة ١٩٢٠) . وبالفعل فقد أزيل من المختبر درس السيرورات العليا .

لا تتجلى أهمية مؤلف فوندت في هذا العمـــل ذاته ، بل وأيضاً في كون التأثيرات الكبرى التي حولت المجرى اللاحق لعلم النفس التجريبي، يمكن أن أن تعتبر ردود فعل ضد بعض مميزات نظامه . وفي الواقع فإن هذه المميزات تقوم على درس السيرورات العليا درساً تجريبياً وعلى اعتبار الأحداث النفسانية كوحدات مرصوصة مبينة بشكل قوي وليست فقط مجرد تلاصق « عناصر » وعلى نبذ الاستبطان .

٣ ــ المؤثرات اللاحقـــة

١ – **الدراسة التجريبية للسيرورات العليا** . -في سنة ١٨٧٩ تطرق رجل علم انكليزي لامع ، هو ف . فالتون (١٨١٢ – ١٩١١) إلى هذا الموضوع مع مواضيع أخرى (سنأتي على ذكرها في مجالها) واستعمل استمارة لكي يحصل على إفادات عدد وفير من الاشخاص حول طبيعة « الصور العقلية » (البصرية والسمعية وغيرهما) التي تبعثها بعض الكلمات في أذهانهم .

لكن فليسوفاً ألمانياً آخر ، ذو ثقافة علمية ، وهو أبنفهوس (١٨٥٠ – ١٩٠٩) هو الذي سيطبق لأول مرة وبشكل مذهب على سيرورة « عالية » ، هي الذا كرة ، الطريقة التجريبية التي كانت قد غزت مجال الاحساس والإدراك.

اكتشف هذا إنتاج فكنر سنة ١٨٧٦ (وبالمعنى الحرفي تماما : في علبة كتبي باريسي) ثم قرأ أيضاً ما نشره فوندت. لكنه لم يكن له هناك بالفعل استاذاً ولا تلاميذ ولقد ظهر له كمؤلف منفزل، كتاب بعنوان: «في الذا كرة» Uber das Gedachtnis

عالج فيه مشا كل مناهجية عامة تتعلق بالظروف التي تجعل القياس ممكنا وطبق آراءه العامة على مشكلة الذاكرة . ثم علم اشخاصه المجرَّب عليهم لوائح من المقاطع التي لا معنى لها (لكي يحصل على معدات أكثر انسجاما من تلك التي يتيحها نص ذومعنى) . واستعمل تواتر التكرار الضروري لإعادة حفظ لائحة منسية جزئياً، لقياس الأثر الذي تركه تعلمٌ أول . وهكذا درس أثر طول

العتاد (اللائحة) ، وعـــدد المرات المكررة ، والزمن (منحنى النسيان)، والتداعي ، الخ . . .

ودرس «ابنفهوس» ، عدا أبحاثه هذه عن الذا كرة ، نظرية رؤية الالوان، لكنه عاد إلى السيرورات العليا ، مقترحاً ، سنة ١٨٩٧ ، تطبيق طريقة لـ « ريازة » ذكاء تلاميذ برسلو : بـــأن طلب اليهم اكمال نص حذفت منه بعض الكلمات .

جرت أول دراسة تجريبية حول الفكر ، في العقد الأول من القرن ، من قبل جماعة من علماء النفس العاملين في معهد السيكولوجيا التابع لجامعـــة فورزبورغ . لقد جربوا أن يجعلوا من الاستبطان أسلوباً تجريبياً ، مدونين بدقة كل أوضاع التجربة (زمن رد الفعل خصوصا) وكل ما يشعر به الفرد في كل مرحلة من مراحل العمل الفكري المطلوب إليـــه ، مكتفين في التجربة بالأفراد الذين سبق إعدادهم ، ومكررين التجربة ، الخ ... كانت « مدرسة فورزبورغ » تستوحى وتدار من قبل تلميذ قديم لفوندت ، إنه أ . كولب « ١٨٦٢ — ١٩١٥ » .

بيد أن الأثر المهم يعود ، في هـــذا المجال ، ، إلى فرنسي هو أ . بينيه A . Binet « ١٨٥٧ — ١٩١١ » . ففي مجال الذاكرة يعاكس بينيه هذا ابنفهوس في استعمال العتاد « المعدات » ، فهو يستعمل الافكار ، لا المقاطع الخالية من المعنى « ١٨٩٥ » . ولم تكن هذه النزعة الرامية إلى درس عمليـــة الذاكرة في الظروف الطبيعية العادية إلا تمظهراً لاتجاه عقلي عام يعاكس ويضادد النزعة الاصطناعية ونزعة التجزئة في مجال علم النفس التجريبي الالماني . ولقد سبق أن ُوجد هذا الاتجاه في كتابه « المدخل إلى علم النفس التجريبي »(١٨٩٤) وكذلك أيضاً في مقاله سنة ١٨٩٦ بالتعاون مع ف . هنري حول « علم النفس الفردي » ، وهو المقال المنشور في « السنة السيكولوجية » التي كان قد اسسها

مع بوني Beounis في السنة السابقة لهذا التاريخ . ولقد أشار فيه إلى ضرورة استعمال الاختبارات المنوعة والمرغّبة والمكيفة حسب الوسط الذي ينتمي إليه الفرد ، لدرس « الملكات العليا » « كالذاكرة ، طبيعية الصور العقلية ، المخيلة ، الانتباه ، ملكة الفهم ، الايحائية ، الشعور الجمالي ، المشاعر الأخلاقية ، الخ ... » دون الالتجاء إلى الآلات المعقدة ولا إلى التجهيزات الخاصة . وقاده هذا الاتجاه نحو العيني إلى إجراء تجاربه في المدارس ذاتها لا في المختبرات ، كما قاده أيضاً ، أثناء دراسته لقياس الذكاء ، إلى ترك قياسات « مقاييس الجمجمة أو الرأس »[1] Céphalométriques في سبيل اعتماد « سلم » من الاختبارات الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن المسائل التي قد تطرحها الحياة المألوفة. ويتيح تعقيد هذه المسائل المتزايد – كما سنرى ذلك عند درس السيكولوجيا الفارقية – تصنيف الأولاد وفقاً لدرجات نجاحهم . وبدت هذه المخالفة للمدرسة الألمانية مدروسة وواعية تماما . فهو يرى فيها مظهراً من مظاهر « التطوير الحاسم » في حقل سيكولوجيا فكنر وفوندت ، حسبما كتبه في مؤلفه : « الدرس التجريبي للذكاء »[1] «١٩٠٣» .

٢ – **سيكولوجية الشكل.** –تتطلب محاولات الدرس التجريبي للسيرورات العليا ، إلى حد ما ، التخلي عن الاتجاه التحليلي الشديد التبسيط (وفوندت سبق له أن رأى ذلك جيدا) . والواقع أنه ليصعب تماماً التثبت من الحالات المعقدة جداً بواسطة عدد محدود من « العناصر »،تصبح المشكلة فيها إيجاد كيفية ترابط هذه العناصر . إلا أنه سرعان ما تبين عقب وفـــاة بينيه بقليل أن الصعوبة توجد أيضاً على مستوى الادراك. والواقع أن هذا هو المجال الذي غالبا ما كان موضوع الدراسات التي قام بها فريق ضئيل من علماء النفس أمثال : ورتيمير M. Wirtheemer وكوهلر W·Koehler وكوفكا K. Koffka الذين أسسوا في برلين ، من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩٢٠ ، مدرسة جديدة تعتبر الأحداث

(١) او المقاييس المرآسية

(1) L'étude expérimentale de l'intélligence

السيكولوجية وحدات منظمة ، جشطلت أي اشكالاً . هذه الأشكال ليست مجموعة من « العناصر » . ذلك يغير فيها تماما أي تغير في الوضع ، بحيث يحولها إلى وضعية أخرى . وقد تكرست عدة دراسات تجريبية لبحث الكيفية التي على أساسها تنتظم هذه الأشكال ، أو تتميز عن « الارضية » ، أو تنتقل ، الخ ... لقد تناولت الدراسات بوجه خاص الادراك ، بل والذكاء أيضا المدروس خصوصاً عند الحيوان .

وبالطبع لم تكن هذه الأفكار كلها جديدة كل الجدة . فالانتقادات التي وجهت إلى منهج حساب زمن رد الفعل هي ، مع كثير غيرها ، مظاهر سبقت هذه الأفكار . ثم أن العالم النفسي النمسوي أهرنفلز C. Ehrenfels نشر سنة ١٨٩٠ مذكرة بعنوان « الصفات الشكلية [1] » تعتبر مدخلا مباشراً للمعلومات التي سوف توسعها هذه المدرسة الجديدة .

ويعود إلى « الجشتلطيين » فضل تطوير وصياغة وتنسيق هذه الأفكار ، وإعطائها شكل النظرية ، المحدثة للعديد من الأعمال التجريبية الأصيلة : وقد أدرك فريتمر في ١٩١٢ عند درسه كيفية إدراك الحركة ، أن انتقال شيء ما ، يدرك بوجه مغاير لإدراك سلسلة متتابعة من الأشياء الجامدة التي قد تقع في مساره : ذلك أن القضية تتعلق « بشكل » لا يحلل إلى جملة عناصر . وترعرت الأعمال التجريبية ، خصوصاً عقب إنشاء ، في عام ١٩٢٢ ، مجلة تولى نشرها هي : « البحث النفساني Psychologishe Forschung . تتناول في معظمها ، الادراك وقوانينه .

٢ **ردود الفعل ضد الإستبطان.**— رأينا المكان الذي يتبوأه الاستبطان في علم النفس لدى فوندت، وهي الطريقة التي تقوم على استعمال افادات الفرد ذاته عن « تجـــاربه المباشرة » « أحوال الوعي » عنده كأداة للدراسة . لم يتردد فوندت سنة ١٨٥٨ بالقول في مقـدمة كتابه « مقالات عن نظرية الادراك

---

(1) ueber Gestaltqualitaten

الحسي » : « أن كل سيكولوجية تبدأ بالاستبطان » . لقـــد كان غالتون في تقصّيه عن طبيعة الصور العقلية ، و«بينيه »في مشروعه بالدرس التجريبي للذكاء، يرتكزان ايضاً على الاستبطان .

سرعان ما بدت نقاط الضعف في هذا المنهج . فهو بالواقع ، وبحكم تعريفه بالذات ، انكار للطريقة الموضوعية : فأنا وحدي القادر على الوصول الى «حالات وعيي » ، والوحيد القادر على معرفة « تجاربي المباشرة » . وعلى هـذا فكيف تتحقق المراقبة من قبـل ملاحظين مستقلين ، وهـــو الامر الذي يعتبر الصفة المميزة للمنهج الموضوعي ؟

لقد بدت هذه المثالب بشكلين ، بمقارنتها ، في البدء ، بمنهاج الفيزيولوجيا حيث ان اكتشاف اواليات الهضم والتنفس لم يتم استناداً الى اقـــوال الافراد الذين تُركوا يراقبونها بأنفسهم . ثم ، من جهة ثانية ، بالنجاحات التي حققها علم النفس الحيـــواني الذي لا يستطيع ، بشكل بديهي طبعاً ان يلتجىء الى الاستبطان . لماذا إذن لا تستعمل في علم النفس الانساني مبادىء المناهج المستعملة في الفيزيولوجيا او في علم نفس الحيوان ؟

٤ — **الفيزيولوجيا وعلم النفس** .— لقد سبق ان رأينا، بوجه عام ، الدور الذي لعبته الفيزيولوجيا — خصوصاً الفيزيولوجيا العصبية — في تكوين عـــلم نفس تجريبي . لكن القضـــايا التي كانت ، في الاصل ، وراء ظهور هذه السيكولوجيا ، كانت على صلة بالاحساسات خصوصاً . ويبدو ان دراسة السيرورات الاكثر تعقيداً يمكن ان تتعلق بالفرع الجديد هذا، على وجه خاص . وقد اتاح التقدم الكثير الذي حققه الفيزيولوجيون، للبعض منهم امكانية ترقب تطبيق أساليبهم ، أو على الاقل من حيث الامكانية في المستقبل، على «الظواهر العقلية » ، وعلى « التكيفات ذات المستوى الأعلى » .

بهذا المعنى كتب كلود برنار في خطابه الافتتاحي عند قبوله في المجمع العلمي الفرنسي سنــة ١٨٦٩ يقول « تريد الفيزيولوجيــا ان تفسر الظواهر العقلية

بالطريقة نفسها المستخدمة في الظواهر الاخرى للحياة » .

وفي سنة ١٩٠٣ تسائل الفيزيولوجي الروسي بافلوف ايضاً : « ما هو السبب الذي يحمل على تغيير النهج عند دراسة التكيفات ذات المستوى الارفـــع ؟ عاجلاً ام آجلاً سيعمل العلم، مستنداً الى التشابهات في المظاهر الخارجية ، على نقل المعطيات الموضوعية المستحصل عليها ، الى عالمنا الذاتي ؛ والعـــلم عندما ينير فجأة وبقوة طبيعتنا الغامضة تماماً فإنه سيوضح الإوالية والمعنى الحقيقي لما يشغل بال الانسان اكثر من أي شيء آخر ، يعني ذلك : وعيه ... » .

يشكل عمل بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) ، من وجهة منبعه ، مثالا جيداً على رد فعل العالم الفيزيولوجي على الذاتية وعلى المذهب التشبيهي (بالانسان) [١] في التأويل والتفسير اللذين يمكن ان يقدمها علمُ نفس، مؤسس على الاستبطان - الذي هو بالضرورة خاصة انسانية صرفة . وساعد عمل بافلوف بحكم تطوره ونموه ، على تزويد علم النفس الموضوعي بمفهوم ثمين هو « الانعكاس الشرطي » : عندما نقرن منبهاً ما اصطناعياً (ضوء ، صوت ، الـــخ ...) بمنبه طبيعي لإنعكاس ما (الاطعمة بالنسبة الى فرز العصارة المعدية مثلا) يصبح هذا المنبه المصطنع (الضوء او الصوت المستعملان) قادراً بعد مدة من الزمن، على احداث الانعكاس بغياب المنبه الطبيعي .

تدل الانعكاسات المشروطة على نمـــط عال في التكيف مـــع المكان : فالظروف عند اقترانها بتغير ما ، تستخدم كإشارة عند تكرارها ثانية، لتدل على تكيف فيزيولوجي متناسب مع هذا التغير . وبالنسبة الى الانسان تشكل اللغة « نظاماً ثانياً من اللجوء الى الاشارات » ، يمكن ان يحل محل الاحساسات المباشرة (النظام الأول) وبالتالي يوسع كثيراً مجال نمط التكيف . ومن وجهة نظر تقنية ، يمكّن المنهج بصورة موضوعية من معرفة قدرة الانسان والحيوان

---

١ - او المذهب الحشوي .

على التمييز بين اثارتين: وعندها يجب ان يستعمل احدهما كاشارة على الانعكاس المشروط ، في حين يبقى الآخر بدون مفعول .

في سنة ١٨٩٧ ، وبمناسبة دراسة حول الهضم ، لاحظ بافلوف ان صوت خطوات خادم المختبر عندما كان يجلب الطعام للكلاب المستعملة كمواضيع للتجربة ، كان كافياً لأن يبعث لدى هذه الكلاب افراز العصارة المعدية وهذا ما سماه بـ « الافراز النفسي » . شرع بافلوف يدرس ذلك درساً منتظماً ، سنة ١٩٠٠ ، محاولا تفسير الظاهرة هذه . وقام ضد رأي مساعده سنارسكي ، في ١٩٠١ ، الذي اقترح تفسيرات وصفها بافلوف بأنها « نفسانية » (والاولى القول بأنها ذاتية ومشبهة بالانسان) مشيراً الى « رغبات » أو « عواطف » الكلب . وانفصل بافلوف عن مساعده اذ ظل على الصعيد الفيزيولوجي مستنداً ومتذرعاً بالارتباطات العصبية المستقرة في القشرة الدماغية للكلب عن طريق التداعي بين صوت الخطوة وهضم الوجبة المقدمة له . وفي سنة ١٩٠٣ قدم بافلوف اكتشافه الي المجمع الطبي في مدريد . وابتداء من سنة ١٩٠٥ بدأ هو وتلامذته يتفرغون لسلسلة من الاعمال التجريبية حول الانعكاس المشروط ، دارساً شروط تكوينه وانطفائه ، ثم تعميمه وتخصيصه ، واخيراً التداخل بين عدة انعكاسات ، الخ ... وفي سنة ١٩٢٣ ، صدر كتاب بافلوف المعنون : « عشرون سنة من التجارب حول الدرس الموضوعي لنشاط الحيوانات العصبي العالي » . واحتفظ الكاتب بعنوانه أبان طبعه عدة مرات . وفي سنة ١٩٢٧ ترجمت الى الفرنسية طبعة سنة ١٩٢٥ تحت عنوان « الانعكاسات المشروطة » . وفي سنة ١٩٢٧ ظهر أيضاً كتاب « دروس حول نشاط الغشاء الدماغي » . وظهر مفهوم النظام الثاني للتشويرات (التأشيرات) سنة ١٩٣٤ في مقال عن « الانعكاس المشروط » كتب لـ « الموسوعة الطبية الكبرى » . ويمكن التقريب بين هذا المفهوم لدور اللغة وبين المقطع التالي الذي كتبه بينيه في : « الدراسة التجريبية عن الذكاء » سنة ١٩٠٣ ، وهذا هو :

«يجب ان نفهم بالتنبيه Excitation [1] ليس فقط دغدغة اعضاء الحواس بعامل مادي ، بل وايضاً كل تغيير نحدثه نحن ، المختبرين ، عن قصد في وعي الموضوع تحت التجربة ؛ وهكذا تعتبر اللغة بالنسبة الى العالم النفسي منبهاً اثمن بكثير ، بل وسأقول هو بدقة المنبهات الحسية . فاللغة يمكن ان تعطي للتجريب السيكولوجي اتساعاً ضخماً » .

يمكن الاشارة ، الى جانب بافلوف، الى اسم عالم اعصاب هو الطبيب العقلي الروسي بيشتيريف (١٨٥٧ — ١٩٢٧) الذي اشتغل مع فوندت في المانيا ، ومع شاركو في باريس (راجع الفصل الرابع) ، كتب هذا عدة مؤلفات عن علم الاعصاب وعن علم النفس ، وساهم في كتابه عن « السيكولوجيا المتعلقة بالانعكاسية » [2] ، في تيـــار الأفكار الرامي الى جعل السيكولوجيا علماً موضوعياً .

كما ظهر اهتمام الفيزيولوجيين بالقضايا السيكولوجية ايضاً ، في فرنسا ، في ابداية العصر ، وبذلت العناية بالموضوعية التجريبية الدقيقة. وترك هـ. بوني منبره في كلية الطب في نانسي سنة ١٨٨٩ ليدير مختبر السيكولوجيا التجريبية في السوربون . وشجع أ. داستر A. DASTRE تلميذه هـ. بيرون PIÉRON (١٨٨١ — ١٩٦٤) على الربط المحـــكم بين الفيزيولوجيا وعلم النفس ، كما قاد اعمالا حول « الانعكاسات النفسية » . ونشر مالوزيل MALLOIZEL حول هذا الموضوع ، سنة ١٩٠٥ ، اطروحة مهمة . وقد اجرى هذا ابحاثه في الوقت ذاته لأبحاث بافلوف ، وبشكل مستقل . وخصص أ. غلي E. GLEY حامل درجة الاستاذية في الفيزيولوجيا ، ابحاثه حول تأثير العمل الفكري . اما «ريشي» فسيكولوجي بقدر ما هو فيزيولوجي .

---

١ — استعملنا للدلالة على « المير » كلمة : Stimulus

٢ — Psychoréflexologie

وجاءت المعلومات المتعلقة بالمناطق تحت القشرية، تضاف الى المعارف التي تم الوصول اليها عن فيزيولوجية القسم الأعلى من الدماغ وهو اللحاء . وأحدث الفيزيولوجي الايطالي باغـــانو سنة ١٩٠٦ ، عن طريق حقن الكلب بسم نباتي في هذه المناطق، تصرفات تدل على الخوف، والقلق، والغضب والاعتدال كما دلت الابحاث اللاحقة العديدة ، الجارية خصوصاً بعد سنة ١٩٢٠ ، على ان هذا القسم من الدماغ يلعب دوراً مهماً في تنظيم الانفعالات والوجدانيات .

٥ - **علم النفس الحيواني وعلم النفس الانساني.**- يأتي التيار الثاني المعاكس لاستعمال الاستبطان، من علم النفس الحيواني الذي سنتكلم عنه بشكل اكثر منهجية في الفصل الثاني . في سنة ١٩٠٨ نشر هـ . بيرون ، في فرنسا ، في «مجلة الشهر » ، نص درس افتتاحي اعطي في السنة المنصرمة في المدرسة العمليـــة للدراسات العليا حول « تطور النفسية » . وهذا هو البيان الحقيقي عـــن علم النفس الموضوعي الذي في نبذه لظواهر « الوعي » ، وفي ارتكازه على مراقبة ردود الافعـــال لجسم عضوي على بيئته وعلى سلوكه ، شمل بصورة واضحة السيكولوجيا الانسانية والسيكولوجيا الحيوانية . وقد كان هذا المؤلف حتى ذلك التاريخ يكرس معظم اوقاته لعلم النفس الحيواني .

كان ذلك النص واضحاً تماماً وجديراً بان يذكر هنا « ... انه لمن الممكن ، بقدر ما هو ضروري ، لا قط انكار ، بل تجاهل ، الوعي في هذه الأبحاث التطورية حول نفسية الاجسام العضوية » .

لكن اذا كانت هذه الابحاث لا تتناول الوعي ، فأي شيء اذن ستتناول اذا لم يكن قد دُرس قبل ذلك ، من قبـــل الفيزيولوجيا ؟ انها تتناول نشاط الكائنات وعلاقاتها الحسية — الحركة مع الوسط، تتناول ما يسميه الاميركيون بـ The Behavior ، والالمان بـ das Verhalten ، والايطاليون بـ lo comportamento ، وما يحق لنا نحن الفرنسيين ان نسميه بسلوك comportement الاجسام العضوية . وفيما تهتم الفيزيولوجيا بتحديد اوالية

وظائف الملاقة هذه ، اذا أُخذت معزولة وبمفردها ، يتوجب على علم النفس انيدرس عملية هذه الوظائف وهي عملية معقدة، وأوالية استعمالاتها ، الأوالية التي تتيح استمرار وديمومة الحياة » .

لم يؤد هذا « البيان » في فرنسا الى ظهـــور « مدرسة » ، المدرسة التي ستنشأ بعد بضع سنوات حول ذات المفاهيم ومن نفس الكلمة في اميركا ، حيث « تثقل المواريث اخف وطأة » كما قال بيرون .

تلك هي « المدرسة السلوكية » behaviorisme التي أسست سنة ١٩١٣ من قبل ج. ب. واطسون . يرى هـــذا العالم هو ايضاً ، ان ملاحظة ردود الافعال لجسم ما من الخارج ، ومراقبة « سلوكه » ، يكفيان لاقرار قوانين تسمح بالتنبؤ عما ستؤول اليه هذه الردود عندما تتغير البيئة . وهكذا ، يمكن للعالم النفساني ان يؤكد ان الجرذ يميز بين الازرق والاخضر اذا توصل لأن ينجح في تدريب معين بموجبه يستطيع هذا الفأر اذا وضع في شروط وحالات تكون بحيث يستحيل عليه الاهتداء داخلها الا بالألوان — ان يتجه نحو طعامه الموجود في الدهليز الازرق من « متاهة » تجريبية ، وان يتجنب بانتظـــام الدهليز الأخضر الذي كُهربت ارضه الشبكية بتيار كهربائي . هنا اذن — ولحسن الحظ — لم تستدع الحاجة الإلتجاء الى افادة الكائن عن « حالات وعيه » . ولسوف يجهد واطسون في اثبات ان الامر في ما خص السيكولوجيا الانسانية هو مشابه لحال السيكولوجيا الحيوانية ، فنشر سنة ١٩١٩ « علم نفس » مرتكز فقط على المبادىء . الا ان السيرورات العليا عند الانسان تشكل قضية عويصة : افيجب القبول مع واطسون بأن الفكرة هي « استجابة شفهية ضمنية » وانها على ذلك تتعلق هي ايضاً ، مبدئياً ، بالملاحظة الخارجية الـــتي لا ينقصها مؤقتاً إلا الوسائل التقنية القوية ؟ اننـــا نفهم ان بعض العقائد « السلوكية » قد جرى جدال حولها ، لكن الاتجاه نحو سيكولوجية موضوعية تماماً امر لا جدال فيه .

اجرى واطسون ، ابتداء من سنة ١٩٧٠ اعمـــاله على تعلم الجرذ لبعض الرحلات في « متاهـــات » تجريبية . ونشر سنة ١٩١٣ ، الجوهري من هذه المبادىء العامة في مقال نشر في مجلة علم النفس بعنوان : « علم النفس كما يراه السلوكاني »[١] . واهم كتبه هما : « السلوك. مدخل الى علم النفس المقارن»[٢] و « علم النفس من وجهـة نظر سلوكاني » [٣] ١٩١٩ .

ولقـــد شكل الانعكاس المشروط لـ « بافلوف » احد المناهج الاساسية في المدرسة الجديدة .

نستطيع ان نلحق بالمدرسة السلوكية ، بشكل خاص ، علمـــاء نفس امير كيين مثل تولمان الذي حقق اعمالا هامة حول التعلم من الجرذ ، ثم لاشلي المعروف خاصة بأبحاثه عن الموضعات الدماغية . كما ساهم هول C. L. Hul مساهمة كبيرة في استخدام طريقة الصياغات الرياضية في مجال علم النفس التجريبي .

٤ ـــ التطور الحديث

ان نمو الفروع المتحدرة – على درجات متفاوتة – من علم النفس التجريبي القديم يجعل من التعسف نوعاً ما تحديد تخوم مجاله في الماضي القريب .

لقد توبعت دراسة « السيرورات العليا » ، الذكاء ، – بواسطة مناهج تجريبية – في علم نفس الولد مـــن جهة وفي علم النفس الفارقي من جهة اخرى .

وعند الطرف الثاني من السلم ، فان « السيرورات الاوليـــة » [٤] ،

---

1 — Psychology as the Behaviorist Views it
2 — Behavior. An introduction to comparative Psychology
3 — Psychology from the standpoint of a behaviorist.
٤ – او العمليات الابتدائية : Processus élémentaires

الاحساسات ، بقيت تشكل مجال علم نفس فيزيولوجي قريب من الفيزيولوجيا . وفي هذا المجال استمرت دراسة الرؤيا تحتل منزلة كبرى .

وتحققت أعمال هامة في فرنسا بفضل هـ. بيرون الذي أنشىء له سنة ١٩٢٣ منبر لفيزيولوجيا الاحساسات في الكوليج دي فرانس ، ومن قبـــل تلاميذه أيضاً . ثم ان نتائج هذه الاعمال والنتائج المنجزة خارج فرنسا حــــول هذه المشكلات ذاتها قـــد جمعها هـ. بيرون وألف فيا بينها كتاب نشر عام ١٩٤٥ بعنوان « الانسان ، دليل الحياة » .

وتلك الابحاث التي ما برحت واقعياً ، تشكل مجالاً سيكولوجياً ، تحمل بوضوح عنواناً يبرز صفتها التجريبية ، وتتجمع على ما يبدو ، وفي القسم الاوفر منها ، في منطقة متوسطة تقوم بين السيرورات العليا « والبدائية » : يؤلف الادراك والتعلم من بين هذه كلها ، الموضوعين الأثنين اللذين غالباً ما كانا يُبحثان اكثر من سواهما .

انه لمن الصعب دائماً ان نرسم الخطوط الكبرى ، بطريقة غير متحيزة ، للميول والتأثيرات التي كانت مسيطرة في الماضي القريب . وبدون ادعاء الشمولية فلا مشاحة من الاشارة ، داخل فرنسا ، الى التأثير الشخصي الهائل الذي احدثه هـ. بيرون ، الذي خلف في سنة ١٩١٢ بينيه ، في مختبر علم النفس في السوربون ثم تولى ادارة هذا المختبر ب. فريس P. Fraisse منذ سنة ١٩٥٢ . ولقد جمع هذا الاخير بالتعاون مع ج. بياجيه[١] Piaget في كتاب « الموسع في علم النفس التجريبي »[٢] المنشور ابتداء من سنة ١٩٦٣ اسهامات عدد كبير من علماء النفس الناطقين بالفرنسية . وفي الاتحاد السوفياتي فان التأثير الطاغي وربما كان التأثير الوحيد تقريباً ، هو ما احدثه بافلوف . اما في انكلترا وفي الولايات المتحدة فيبدو ان العلماء المجربين كانوا اشد انفتاحاً مما كان سواهم في اماكن اخرى ، على

---

١ – اقرأ له في منشورات عويدات : البنيوية Le structuralisme .

2 — Traité de Psychologie Expérimentale.

ضروب التقدم الذي اتاح تحقيقه الاخصائيون ، ولا سيا العالم الانكليزي فيشر Fisher في طريقة تنظيم وتأويل التجارب .

من المعروف ان المنهج التجريبي الكلاسيكي ، حسبما استخدمه كلود برنار ، يقوم على ابقاء جميع الاوضاع ثابتة فيا خلا واحد منها فقط يكون مفعوله ، على الظاهرة المدروسة ، ممكن البروز عندئذ للعيان بجلاء ودون التباس. بيد أن النتيجة لا تصلح عند ذلك الا فيا عن القيم او الحالات الخاصة التي تكون قد رسمت لتلك الاوضاع التي ظلت ثابتة دون تغير . أفلا تؤدي تغيرات في هذه الأوضاع الى تعديل في الـ « قانون » الذي يكون قد سن بموجب ذلك ؟ يحظى هذا السؤال باهمية فائقة في علم النفس حيث توفر الأسباب الكثيرة ، الظن بأن العوامل المتعددة التي تحيق بسلوك جسم عضوي تؤثر في بعضها البعض . ولا غرو فانه لمن المستحيل عملياً ان نكرر مرات ومرات التجربة ذاتها لكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال فيما خص متغيرة (Variable) واحدة ، وان نعيد ، كرة اخرى ، السلسلة كلها لكل من المتغيرات . وتتيح المناهج الحديثة حل هذه الصعوبات بان تعمل على ان تغير بشكل متزامن (في نفس الوقت) وبطريقة معدة سلفاً وباعتناء ، مجمل الاوضاع التجريبية . تؤوب هذه المناهج الى ر. أ. فيشير في مؤلفيه الاساسيين :

Statistical methods for reserch workers 1925

ولا سيا كتابه الآخر وهو : (1935) The design of experiments .

وقد ظهرت للعيان هذه المناهج في علم النفس التجريبي حوالي سنة ١٩٣٨ ، اذ كانت حتى ذاك الحين مستعملة في الزراعة على الأخص . كذلك ساهم فيشير ايضاً في توسيع مدى تطبيق المناهج الاحصائية وذلك بأن أنهى تقنيات اتاحت استعمال ملاحظات ذات عدد محدود النطاق .

ان صياغة رياضية للمشاكل المتعلقة بالاتصالات الهاتفية قد قدر ـ في حقبة اقرب الى عهدنا هذا كذلك (حوالي ١٩٥١) ـ على استعمالها هي ايضاً .

فلقد عرضت هذه الصياغة اولاً من قبل شانون C . E . Shannon (١٩٤٨)، وبعدذلك في مؤلف لهذا ذاته ي . و . ويفر Weaver بعنوان: النظرية الرياضية للاتصالات [1] (١٩٤٩) .

لم يظل الاحصاء المنهج الوحيد المستعمل من قبل علماء النفس ، اذ استعملت الرياضيات في « النماذج » (الطرز) « Modèles » الحديثة ، في – على سبيل المثال – النماذج الصدفية (Stochastique) للتعلم ابتـــداء من سنة ١٩٥٠ (و. ك. ايستز Estes ، ر. ر. بوش Bush ، وف. موستيللير Mosteller الخ ...) . ناهيك بان « الجريدة الانكليزية لعلم النفس الاحصائي » صارت تعرف عام ١٩٦٥ باسم : « الجريـــدة الانكليزية لعلم النفس الرياضي والاحصائي » [2] .

وبشأن التطبيقات العملية لعلم النفس التجريبي فلا مندوحة من التمييز بين طائفتين اثنتين منها وهما :

– الطائفة الأقدم والأكثر أهمية حتى هنا مؤلفة من تطبيقات غير مباشرة : هنا لا يتعلق الأمر باستعمال المعرفة العـــامة بالسيرورات المدروسة من قبل السيكولوجيا التجريبية بل باستعمال لغة الفروق بين الأفراد ، بغية ، على سبيل المثال ، الانتقاء والتوجيه المهنيين . وشكلت هذه الدراسة متميزاً نسبياً عن سواه وسوف نتطرق له في الفصل الثالث .

أما الطائفة الاخرى من التطبيقات فانها تعود الى عهد أحدث بكثير ، وهي تحوي الاستعمالات التي أخـــذت من الدراسات في المختبر على الادراك ، الحركية ، الخ ... وبالواقع فان هذه الدراسات تتيح تعريف الأوضاع التي في داخلها يكون عمل ما ، هو العمل الايسر اجراءه . كما تستطيع هذه ايضاً ،

1 — The Mathematical Theory of Communication.

2 — British Journal of Mathematical and Statistical Psychology.

بالتالي ، ان توحي باجراء تعديلات في مراكز العمل وذلك بغية جعلها ممكنة المنال والولوج على عـــدد اكبر من الأفراد (هندسة انسانية ، المجاهدية أي ارغولوجيا) .

يعود تاريخ هذه التطبيقات الى فترة الحرب العالميـــة الأخيرة ، اذ دُعي ابانها سيكولوجيو « المختبر » الى ان يستعملوا معارفهم لصالح المجهود الحربي . وقد تناولت هذه التطبيقات بادىء ذي بـــدء المشكلات العسكرية (تسلم وتصرف بوظيفة قيادة طائرة ، مثلا) ثم اتسع نطاقها فشملت فيما تلا من زمن، مسائل صناعيـــة (قيادة آليـات ، أجهزة القراءة الموجودة في بعض الأدوات ، الخ ..) .

٢ علم النفس الحيواني

١ – تطور الافكار

٢ – تطور المناهج

١ ـ تطور الافكار

رأينا فيما سلف ، في مجرى الفصل المنصرم ، الروابط التي تجمع علم النفس « التجريبي » بعلم النفس « الحيواني » . انه لمن البديهي تماماً ان تكون امكانيات التنويع في ظروف البيئة اكثر اتساعاً لدى المجرب الذي يجري اعماله على الحيوانات . بل ان هذا يستطيع ، في الحالة هذه ، إذا كان أيضاً فيزيولوجياً ، ان يحقق تحطيمات في الاعضاء في سبيل ان يثبت من فرضياته المطروحة على ميكانيزمات السلوكات التي يلاحظها .

يتألف الميراث السحيق لعلم النفس الحيواني من نوعين من المؤلفات : مؤلفات علماء الحيوان ، وكذلك كما هي الحال بالنسبة لعلم النفس التجريبي من مؤلفات الفلاسفة ايضاً .

من البديهي ان تكون اقدم الملاحظات على الحيوانات وعلى عاداتها مدينة بوجودها للصيادين والقناصين . ولا غرو فان فضول العلماء الطبيعيين المنزه هو أحدث عهداً من عهد الملاحظات هذه . بيد ان اولئك وهؤلاء كانوا يصفون جيداً التكيفات adaptations التي تحصل بين مواضيعهم هذه ، (الحيوانات) وبين تنوعات الشروط البيئية ، من ثم فانهم كانوا ، بالتالي ، يقومون تماماً ، وبمعنى من المعاني ، بعمل يؤول الى « علم النفس الحيواني » . إلا انهم غالباً ما كانوا يشرحون السلوكات[1] التي كانوا يلاحظونها وفقاً لأهداف ولغايات يكون من المعقول اكثر ان تعزى لانسان يقوم بهذا السلوك ذاته . اجل ! لقد

---

١ ــ السلوكات : جمع سلوك .

ظلوا في الاغلب « غائبين » ، و « مشبهين بالانسان » [١] . التجريب ضروري لمعرفة ما هي ، بالنسبة للحيوان ، الاسباب المحددة للسلوكات التي نلاحظها ، اذ تكفي تغييرات اصطناعية في الاضاءة ، لكي نبعث لدى بعض الحيوانات طيرانات هجروية ليست في موسمها ، كذلك فاننا نحدث سلوكات امومية لدى اناث ، بواسطة تماثيل او مشابهات لا تحوي سوى بضع من صفات الذكور (وعند ذاك نستطيع تحديد تلك الصفات بالضبط) ، الخ ...

ان التخلي عن الموقف التشبيهي ثم استعمال التجريب مقروناً بالملاحظة ادّيا بعلماء الحيوان الى ان يعملوا في ميدان وبمناهج سيشاركون بها مع علماء النفس فيما بعد .

تشكل دراسة الحشرات احدى هذه الميادين التي تجلى فيها هذا التطور على احسن وجه . في فرنسا ، نشر ريومور Réaumur منذ عام ١٧٤٠ ، كتاب : «مذكرات لأجل خدمة تاريخ الحشرات» [٢]. كما ان العشرات الأوائل من سني هذا القرن شهدت نمو اعمال ب. مارشال ، أي. ل . بوفيه [٣] ، جي. بونييه [٤] ، أي. روبو [٥] ، سي. فرتون [٦] ، أي. رابو [٧] ، وهذا من بين اعمال عديدة اخرى . إلا ان المساهمة الاكبر اهمية في هذا الميدان كانت بلا ريب مساهمة استاذ علم الحيوان في جامعة مونيخ ، ك. فون فريش Frish

---

١ – مشبهون بالانسان anthropomorphistes اي يخلعون صفات الانسان على الحيوان ، انهم حشريون .

2 - Mémoires pour servir à l'hitoire des insectes .

3 — Bouvier

4 — G. Bonnier

5 — E. Roubaud

6 — C. Ferton

7 — E. Rabaud

الذي ، منذ عـــام ١٩١٥ تقريباً ، راح يدرس سلوك النحل . كان اكتشاف « لغة » النحل، أي معنى «الرقصات» التي تقوم بها الحارسات الآيبة الى قفيرها، لكي توجه طيران مثيلاتها من النحلات صوب الأزاهير التي تكون قد وجدتها ، اكتشافاً يشكل ، من بين اكتشافات عديدة اخرى ، مساهمة مدينة بوجودها لـ «فون فريش» . وقد لاقى كتابه عن « حياة النحل » (١٩٢٧) [١] ، نجاحاً ساحقاً وترجم ، بشكل حاضر ، الى الفرنسية عام ١٩٥٥ ، كما شكلت حيوانات اجتماعية أخرى ، الأرَضَات ، موضوع دراسات مهمـــة قادها العالم الاحيائي الفرنسي ب . غراسّي منذ ١٩٣٧ .

إلا أن علم النفس الحيواني ، كعلم النفس التجريبي ، ورث بعض مشاكلـــه الأولى عـــن الفلسفة . وفي الواقع فقد بدت مشكلته الأساسية ، إبان ردح من الزمن ، مشكلة معرفة مـــا اذا كانت سلسلة الكائنات الحية ، من الإنسان حتى الحُيَيْبَات[٢] ، تشكـّل أو لا تشكـّل سلسلة مستمرة ومتواصلة . ولتلـك المشكلة أصول بعيدة .وقدشغل بها ديكارت بشكل خاص ، وذلك عندما حاول أن يظهر أن فرقاً في الطبيعة موجود بين الحيوانات ذات السلوك الذي قـــد يستطاع تفسيره كله بخصائص المادة ، وبين الانسان الذي تتشارك فيه المادة مع الوعي . قد يستطيع أن يبني صانع ماهر حيواناً ، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يبني انساناً .

وفي المدة الاقرب منا ، فان النظرية الداروينية في التطور طرحت بطريقة اكثر مباشرة ،المشكلة ذاتها على علم النفس الحيواني .من المعروف ان ش. داروِن (١٨٠٩ – ١٨٨٢) الذي نشر كتابه « اصل الانواع » في عـــام ١٨٥٩ ، يرى ان الفروقات بين أفراد النوع الواحد ، هي مسؤولة عن تطور الانواع وعـــن

---

١ – Aus dem leben der Bienen (1927) .

٢ الحيبيات وهي الأجسام الصغروية ، الجهرية ، أي : Micro - organisme

تكيفها الظاهري مع البيئة . فهو ينادي بالواقع بكون هذه الفروقات وراثية ، وبأن الأفراد الذين ينتفعون من الشيات [الخصوصيات] التي وفرت لهم الحياة ، يتمتعون بفضل هذا الأمر الخاص بهم ، بحظوظ أوفر في البقاء وفي نقل هـذه الشيات التي انفرد بها الى ذريتهم . ان اواليات تطور من هذا القبيل تستلزم الكثير من التعديلات غير المحسوسة من جيل الى آخر ، كما تقتضي بالتالي استمراراً في السلسلة الحيوانيـة . هل هذه الاستمرارية موجودة سيكولوجياً؟ أو اننا سنشهد الوعي والذكاء يبزغان فجأة عند درجة ما في السلم ، الذي كان قـد اختاره ديكارت أو أحد غيره ؟ لقد دلّ دارون ذاته على الطريق لهذا النموذج من الابحاث وذلـك بنشره في ١٨٧٢ كتابـه : « التعبير عن الانفعالات لدى الانسان والحيوان » [١] ، حيث حـاول ان يبين ان الإيمائية الانفعالية عند الانسان هي بقاء سلوك كان نافعاً في زمن يعود الى بضع آلاف سالفة من السنين . مما هو لم يعـد اليوم سوى بَرْطَمَةِ [٢] احتقارٍ أو تكشيرةِ غضب كان حينذاك ، وهذا أمر جائز ، استعداداً للعضّ .

تُرْتَسم هذه الاهتمامات بطريقة واضحة تقريباً في الخطط الخلفي الأبحاث التي جرت في طرفي السلم الحيواني .

ان الاجسام السفلوية (الدنيا) من جهة ، والقردة العليا تلك التي هي الاقرب للانسان من جهة أخرى ، تطرح بالواقع المشكلة هذه بطريقة مختلفة ولكنها اساسية ايضاً .

ان الكثير من الحيوانات ، عند اخضاعها لتأثير منبه مـا ، كالضوء مثلاً ،

---

1 - Expression of emotions in man and animals

٢ – برطمة : مط الشفتين (تبويز حسب الكلمة الدارجة) تعبيراً عن انفعال (غضب ، امتعاض ، اشمئزاز) .

تنتقل من مكانهـــا لكي تقترب أو تبتعد عن هذا المنبه . يشكل هذا السلوك انتحاء (وهو انتحاء ضوئي (استضواء)في المثل المذكور). درس العالم الاحيائي ج. لوب (١٨٥٩ – ١٩٢٤)الاستضواء لدى الحيوانات السفلوية ،محاولاً شرحه بطريقة هي بكاملها ذات نزعـة ميكانيكية ،وتقضي بأن توجه الحيوان قد يبقى متغيراً الى ان يصبح التنبيه الذي يجلبـــه المصدر متساوياً على جانبي الجسم . من اليسير ان نتصور (سيما منذ مجيء الاحيائيـــة الآلية = قبطانية = سيبرنيطيقا) جهازاً يكون بتمامه وكاله فيزيائياً حاوياً وممثلاً خصائص من هذا القبيل . ان النظرية التي شرع لوب في رسم خطوطها العريضة في ١٨٨٩ ، قـد اخذت شكلها النهائي سنة ١٩٠٦ في كتابه : « ديناميكيات المادة الحية » [١]. فقد رأى لوب ، في مثل هذه الانتحاءات ، العناصر المكوّنـــة للغرائز وللأعمال الارادية .

كان هناك بيولوجي آخر « جيننغس » (١٨٦٨ – ١٩٤٧)، أقـل اهتماماً من لوب بالنظريات ، قـــد انكر مذهب هذا الأخير . ان انتماءات الأجسام السفلوية مثل النقاعيـات والجوفات [٢] لا تبدي ابداً ، كما لاحظ بنفسه ، تلك الصفات المحددة بشكل دقيق وجازم والتي يعزوها لوب الى هذه الأجسام. ذلك انه ابان ردود الفعل المتنوعة ، كان هناك تعلم حقيقي عن طريق «المحاولات والأخطاء» يتكون ابتداء من ذلـــك المستوى ، وهذا التعلم هو ما يعود فيقيم الاستمرارية في السلسلة الحيوانيـــة . وفي سنة ١٩٠٤ نشر جيننغس كتابـــه المعنون « سلوك الاجسام السفلوية » [٣].

---

1 _ The dynamics of living matter (1906)

٢ – نقاعيات Infusoires : حيوانات مجهرية ذوات الخلية الواحدة ، تعيش في السوائل وفي نقاعات المادة العضوية ، الجوفات Coelentérés : مجوفات البطن .

3 _ Behavior of the lower organisms .

ثم كان ، وبالضبط في معرض الطريقة التي يتعلم بها الحيوان من جهة والإنسان من جهة اخرى كيفية حل مشكلة جديدة ، ان اعتقد بعض المؤلفين انهم قد وجدوا مبدأ الفصل بين هذا وذاك ، عند الطرف الآخر للسلم الحيواني .

أوصد الاميركي ثورنديك (١٨٧٤ - ١٩٤٩) على حيوان مصوّم (كلب ، هرّ ، قرد) داخل قفص . كان الحيوان يرى الطعام في الخارج ، ولكي يحصل عليـــه ، كان لا بد له أن يعتق نفسه وذلك بأن يحرك اوالية بسيطة ، كأن يجذب ، على سبيل المثال ، حبلاً . وهنـــا يلاحظ كيف يجري التعلم . ان محاولات هي عشوائية تماماً كانت تؤدي الى نجاحات اعتباطية . وبالتدريج ، كان الحيوان يحصل على النجاحات بوقت اسرع : يجري كل شيء كما لو كان الفوز قد ساهم في ان « يثبّت » الى حد ما ، التحريـــك اليدوي الذي أتاح الحصول على الفوز « قانون الأثر » .

وهذا التعلم بـ « المحاولات والأخطاء » لا مجال فيه مطلقاً لاختفاء فجائي ونهائي للتلمّس Tâtonnement ، أي كما هي الحال عندما « يفهم » انسان ما فجأة المشكلة الملقاة عليه . منح العالم الطبيعي الفرنسي بوتان في سنة ١٩١٤ هذا الفرق ، قيمة حاسمة لأجل التمييز السيكولوجي بين الحيوان والانسان . إلا أن أعمالاً اخرى على القردة - أعمال ر. م. يركيز ابتداء من ١٩١١ ، أعمـــال كوهلر منذ ١٩١٥ ايضاً ، أعمال غيبوم (١٨٨٧ - ١٩٦٢) ابتداء من ١٩٢٣ ، وغيبوم وميرسون ابتداء من ١٩٣٠ - أبدت أن هـــذه الصفة ليست مميزة وان الاستمرارية ، في أوضاع تجريبية مضبوطة ، تتحقق تمامـــاً بين السلوكات « الذكية » للقرد وللانسان .

بيد أن الاهتمام ينثلم بسرعة نوعاً ما ، إزاء تلك المشكلة العامة ، والعامـــة كثيراً ، المتعلقة باستمرارية السلم الحيواني من جهة الـ « وعي » أو الـ « ذكاء » . واننا

لندرك أن جواب المجربين يختلف بمقتضى المحك الذي ينتقونه لدى تعريف الوعي . فهو : امكانية روح المبادرة بنظر « بيتي » (١٧٩٨)، متواحد مندغم بالذكاء لدى « هاشي سوبلي » (١٩٠٠)، ملكة التعلم عند لوب (١٩٠١) ، اشارات قياسية غير مباشرة بمفهوم « لوكاس » (١٩٠٥) ، تخصص الجهاز العصبي وتمظهر في التمييز ولين العريكة وروح المبادرة عند يركيز (١٩٠٦) . على ذلك نتبين بشكل خاص إمكانية علم نفس لا يستخدم مفهوم الوعي الذي تُيقّن انه غير قابل للتعريف بشكل موضوعي ، علم نفس السلوك (بيرون ، ١٩٠٧ ، واطسون ١٩٣٢) . ومذئذ الفت تلك المشكلة نفسها ، التي هي ظاهرياً أساسية في علم النفس الحيواني ، وقد طرحت خارج ميدانها . اذا كانت بعض الأبحاث قد استمرت في التتابع بشكل متواز على الانسان وعلى الحيوان ، فانها أضحت تجري بروح مغايرة تماماً ، وهو ما انفك منذ ذاك وصاعداً يتصف به علم نفس الحيوان .

بمثل هذه الروح ، استمر اهتمام العالم النفسي في تجاوز الحيوان الخاص الذي يجري عليه اعماله . فقد أبدت التجربة ، بالواقع ، ان بعض التكيفات كانت تجري وفقاً للسيرورة نفسها عند الحيوان وعند الانسان وان نتائج حُصِل عليها عند الحيوان ،لا مشاحة في أن يكون لها مدى عاماً. ولا يقضي مثل هذا التأكد أو معاينة هذا الأمر ضرورة طرح مشكلة « الوعي » لدى الحيوان .

هذان مثلان ، عند طرفي السلم الحيواني : علّم بيرون (١٩٠٩) حلزونات (رخويات صغيرة معديات الأرجل[1]) أن لا تقوم بردّ فعل عند تعتيم المصدر الضوئي الذي يثيرها ، ثم درس الـ « نسيان » لهذا التعلم ، مستخدماً لذلك منهجاً مماثلاً للمنهج الذي كان ابنغهوس قد استخدمه على أفراد من البشر نسوا لائحة من مقاطع كلمات (منهج الاقتصاد) . لقد كانت الصلة التي اقامها بين الوقت

---

١ – معديات الأرجل Gastéropodes .

والأثر الذاكري عند الحلزونات تطبق ايضاً على نتائج ابنغهوس . ثم أنـــه قد سبقت الاشارة الى تجارب ب . غييوم وا ي ميرسون (ابتداء من ١٩٣٠) على استخدام الآلة عنـد القرد . كـَرَّ رَ ك . غوتشالت تجاربـــاً متماثلة تماماً على مجموعات من الاولاد الطبيعيين والمتخلفين . لقد كانت النتائج متوازية (١٩٣٣).

ثم لمـاذا يجهد العـالم النفسي باحثـاً عند الحيوان عن نتائج قابـلة للتعميم على الانسان ، عوضاً عن أن يدرسها مباشرة لدى هذا الاخير ؟ فيما خلا امكانيات التجريب التي هي أكثر اتساعاً ، نجد أن هذه الفائـــدة معللة بأسباب عدة .

– في بداية الامر ، أن سيرورة ما هي غالباً ابسط عند الحيوان بمعنى انهـا لا تتدخل قط ، أو انها تتدخل بدرجة اقل ، مع سيرورات اخرى ، وخاصة مع مكتسبات سالفة . ثم أن هذا الشيء يصبح أقرب إلى الحقيـقة كلما هبطنا إلى درجة ادنى فأدنى في السلم . بل ويشكل هذا ، على سبيل المثال ، احـــد الاسباب التي دفعت غ.فيو Viaud [1] (١٨٩٩ – ١٩٦١) لأن يدرس الاستضواء الحيواني عند براغيث الماء [1] (١٩٣٢) .

– من جهة ثانية ، تتيح الدراسات على الحيوانات ، التصدي لبعض المشاكل على مستوى أقـــل ابتدائية مما قد تتيحه ابسط التجارب على الانسان ، وهي بهذا تتيح لنا أن نفهم على وجه أحسن طبيعة هذا الاخير . تلك هي الحال مثلاً في دراسة الاختراع لدى القرد الذي يشكل معضلة بالنسبة له ، نقـل صندوق لوضعه تحت طعمٍ لا يستطيع أن يطاله بدون أن يرتفع عن الأرض .

– اخيراً ، إن مجرد وجود قوانين صالحة في الوقت نفسه من أجـل الانسان

١ – برغوث الماء (daphnie) هو نوع من الدويبات الصغيرة المائيـة ينتمي الى القشريات .

والحيوان،لا يستلزم بالضرورة اتجاهاً ذا نزعـة تشبيهية تقضي بأن نشرح سلوك الحيوان باللجوء إلى سلوك الانسان . بالعكس ، انـه لمـن « المقتصد » أكثر أن نلجأ بالنسبة للانسان إلى التفاسير الابسط، الكافية بالنسبة للحيوان . على هذا، وقد سبق أن رأينا ذلك ، فان مفهوماً « للوعي » يكون خاصاً فقط بالانسان، قد تُخلي عنه في الوقت عينه الذي اهمِل فيه منهج الاستبطان .

لقد رافق تطور الافكار الذي كنا هنـــا نعيد اقتفاءه ، تطوراً في المناهـج أيضاً .

٢ ـ تطور المناهـــج

لقد كان في انكلـــترا بادىء ذي بدء (سبق أن أشير إلى أهمية افكار داروين) أن بزغ علم النفس الحيواني . اقتصر عمـل « رومانس » (١٨٤٨ — ١٨٩٤) على تأليف حكايات ، البعض منها مرتاب بصحته . ولقد شكلت هذه الحكايا جوهر كتابيـه : **الذكاء الحيواني** (١٨٨٢) ، **والتطور الذهني في الحيوانات** (١٨٨٣) [١] .

بدأ استخدام المناهج العملية مع « مورغان » (١٨٥٢ ـ ١٩٣٦)،إذ تبنى قاعدة بشّرت إلى حد ما بتحدي علماء نفس السلوك لتغـــيرات ذات مفردات تؤوب إلى الوعي وهي أن : لا تأويل قط لعمل ما على أنه نتيجة ملكة نفسية عليا إذا كان من المستطاع أن يشرح بملكة أقل ارتفاعاً . عرف مورغان كيف يلاحظ فيأوضاع طبيعية حياة الحيوانات وعرف أيضاً كيفيغير هذه الأوضاع لكي ينير ملاحظاته ، وهذا ما شكل ظهور المنهج التجريبي ، في هذا الحقل. وقد نشر كتابـــين : **حياة الحيوان والذكاء** (١٨٩٠) ، **وسلوك الحيوان**

---

1 - Animal intelligence . Mental evolution in animals .

(١٩٠٠). [١] فكان تأثيره كبيراً جداً على لوب .

حاول ج . لوب (١٨٥٩ ـ ١٩٢٤) ، وهو الماني اشتغل في اميركا ، أن لا يستخدم سوى منهج فيزيائي ـ كيماوي في شرحـه للانتحاءات . إن محاولة من هذا القبيل تؤول إلى نفي الوجود نفسه لموضوع يكون خاصاً بعلم النفس .

كما حاول المان آخرون ، ت . بير ، بيـتي ، فون اويكـّول ، هم أيضاً ، أن يردوا علم النفس إلى فيزيولوجيا الجهاز العصبي . ففي مقـالة عام ١٨٩٩ ، عرضوا مفرادتية [مُعْجَميّة] جديـدة مخصصة لان تحل محل المفرداتية السيكولوجية المدنـّسة ، بنظرهم ، بالذاتية والمؤسسة على الاستبطان. على ذلك، يقال استقبال الضوء عوضاً عن احساس بصري ، الخ ... هذا التضادد بـين الفيزيولوجيا وعلم النفس (والذي بدا أيضاً لدى بافلوف في ١٩٠١ بصدد تأويل « الافراط السيكولوجي ») لهو تعاكس يرتكز على مسلـّمة قابلة للنقاش ووجيهـا لا يكون منهـج علم النفس إلا منهجـاً ذاتيـاً . أن استحالة استخدام يكون بلا قيـد ولا شرط للمفرداتية الفيزيولوجيـة ، بنظر هؤلاء المؤلفين الالمان ، يظهر تماماً، وجود حوادث موجودة على صعيد آخر وقابلة لان تلاحظ على سلم آخر. لم تنل مفرداتيتهم «الموضوعية» نجاحاً كبيراً،ولقد سبق أن أشير إلى معارضة جيننغس (١٨٦٨ ـ ١٩٤٧) لهذه المدرسة ذات النزعـة الميكانيكية .

كانت سائر هذه المناقشات تدور بين علماء احيائيين . بيد انهـا شكلت الاعمال الاولى لعلم نفس حيواني أضحى بالتدريج علماً مستقلاً . وقد افتتحت مختبرات خاصة بهذا العلم في جامعـات كلارك ، هارفارد ، شيكاغو ، فيما بين ١٨٩٩ و ١٩٠٣. أما في فرنسا،ومع وسائل أقل أهمية بكثير،فقد تعرض هـ . بيرون لهذا الحقل في سنة ١٩٠٤ في«مناهج السيكولوجيا الحيوانية»،و«اللاحركية

---

1 — Animal life and intelligence ; Animal behaviour .

المحافظة للحيوانات »[1] ، الخ...) ، وغالباً ما جرت أعمـاله على اللافقريات البحرية، كما انها جرت بشكل خاص على الاحاسيس المختلفة وعلى الذاكرة .

بيد أن القسط الاوفر من الاعمال قد جرى تحقيقه في الولايات المتحدة .

لقد ذكرت أعمال ثورنديك ، وهي اعمال جرّت سلسلة طويلة جـداً من الدراسات على «التعلم »،ستُكدّس حولها القسم الاعظم من أعمـال علم النفس الحيواني . أضحت الفئران العتاد المفضل لدى الباحثين الاميركيين . فكان « سمول » ، في عام ١٩٠٠ ، هو الذي حقق التجارب الاولى المتعلقة بالتعلم على متاهة من قبل الفئران . ثم بيّن واطسون، في ١٩١١ ، اننا نستطيع أن نؤكد بأن منبهين يكونان مختلفين بالنسبة للحيوان، إذا استطاعا أن يشكلا اشارات تتيح له أن يميز الرواق الحاوي على المكافـأة من ذلك الذي سيكون فيه هذا الحيوان « معاقباً » . انطلاقاً من هنا ، اخذت دراسة التعلم على الفأر امتداداً الى درجة أصبح فيها من المستحيل أن نخطط (Schématiser) نمو هـذه الدراسة بعدة سطور . ساهم « السلوكيون » الاميركيون ، الذين جرى البحث عنهم في الفصل السابق ، في هذه الدراسة وذلك على نطاق واسع .

أجرى «يركيز »أعماله على سائر المستويات للسلم الحيواني ابتداء من السلطون حتى القردة الشبيهة بالانسان.بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك واقترح في سنة ١٩١٣ أن لا يقصر علم النفس « المقارن » على علم النفس الحيواني ، وان نستخدمه بصدد المقارنات بين الجماعات البشرية (في الوقت الراهن : علم النفس الفروقاتي أو الاجتماعي) ، وبين الولد والبالغ (وهو ما يسمى في الوقت الراهـن بـ علم نفس الولد) ، بين السويين واللاسويين (في الوقت الراهـن : علم النفس المرضي) . ولقد قاس يركيز ، بواسطة روائز ، الذكاءَ لدى اللاسويين . كما

1 – Les méthodes de la Psychologie zoologique . L'immobilité protectrice des animaux .

شارك أيضاً في الاختيار السيكولوجي للجيش الاميركي ابان الحرب الكونية الاولى .

سبق ان كانت الاثارة المباشرة لبعض المناطق من الدماغ ، أو تحطيمها ، قد استخدمت من أجل تحديد مكان [تموضع] المراكز الحسية والحركية « فريتش » « وهيتسيغ » ، ١٨٧ ، الخ . .). ولم تطبق مناهج من هذا القبيل إلا في وقت متأخر على دراسة السلوكات الاكثر تعقيداً: كاكتساب العادات أو التعلمات [أنواع التعلم] « فرانتس » ١٩٠٢ ، « ليشلي » ، ١٩١٧ .

ولقد امتدت هذه حديثاً ، بواسطة تسجيل النشاط الكهربائي للدماغ وهو ما أجري عند الحيوان بواسطة العالم الفيزيولوجي الانكليزي « كيتون » منذ ١٨٧٥ ، أي قبل ٥٠ سنة تقريباً من الملاحظات الأولى على الانسان (ه . برجيه ، ١٩٢٩) .

يدرك بيُسر أن هذه الدراسة السيكوفيزيولوجية للدماغ تجري بشكل اسهل على الحيوان منه على الانسان . كما كان يجوز أن نتوقع أيضاً من الدراسات الجارية على المجتمعات الحيوانية (النحل مثلاً) أن تجلب ذات يوم مساهمة ما إلى علم النفس الاجتماعي . انه لمن المدهش أكثر أن نرى أعمال علم النفس الحيواني ، كأعمال « ك . لورنتس » تعود فتلتقي مع بعض المفاهيم التي جذب فرويد اليها الانتباه بصدد المصدر لبعض اضطرابات السلوك لدى الانسان .

اشتغل لورنز خاصة على العصافير والاسماك ؛ وفي سبيل مراقبتها بطريقة مستمرة ومن ثمة وصف السلوك الكامل لكل نوع منها، فانه لم يتردد قط في أن يشاركها في حياتها بشكل كان صميمياً إلى اقصى درجة ممكنة ، كما سبق أن كان قد فعل قبله ، على سبيل المثال ، « هوينروث » في المانيا . كان بيت لورنز في ألتنبرغ مأهولاً بالعصافير التي كان يربيها في حرية وقد توصل إلى أن

يستخدم الـ « لغة » الخاصة بها ، أي بعض الاشارات المستخدمة بين أفراد من نفس النوع الاجتماعي . ولقد حقق هذا العالم دراسات جمة ، كانت على الاغلب بتعاضد مع تنترغن ، بواسطة « تماثيل أو مموّهات » و « افخاخ » أتاحت التدقيق في نوع الاشارات (أشكال ، الوان ، حركات ، الخ ...) التي تُشرع بعض ردود الفعل لدى نوع معين . ومن الممكن أن يشكل الملاحظ نفسه احدى هذه « المموّهات » المذكورة . هذا « الطابع » (empreinte . Imprinting . Prägung) الذي هو ، بنظر لورنز ، قد يكون نهائياً ، يذكر بالاهمية التي يمكن أن تنالها ، حسب فرويد ، التجارب الانفعالية الاولى للولد (انظر الفصل الرابع) .

٣ علم النفس الفارقي

١ - أصول دراسة الفروقات الفردية

٢ - النظريات المتعلقة بالفروقات الفردية

٣ - نمو التطبيقات العملية

سيان أأخذ علم النفس التجريبي كموضوع له الانسان أم الحيوان ، فهو في جوهره علم نفس عام . ذلك أنه يبحث عن قوانين صالحة للنوع الانساني قاطبة ، بل وحتى لسائر الكائنات الحية .بيد اننا إذا اعتبرنا مجموعات مختلفة من الافراد (الرجال والنساء مثلاً) بل وحتى افراداً مختلفين ، فاننا ندرك أن المجموعات كلها والافراد جميعهم لا يتكيفون بطريقة متشابهة تماماً مع نفس التغيير في أوضاع الوسط . ذلك أن « القانون » ، الصلة ، هو حقيقي وصائب في شكله العام بالنسبة للنوع برمته ، بينما نراه يختلف ، ضمن بعض الحدود ، حينما نلاحظ بالتتابع أفراداً معينين . وتشكل دراسة هذه الفروقات الفردية موضوع علم النفس الفارقي . يدين هذا التعبير بوجوده للعالم النفسي الالماني شترن Stern الذي استخدمه سنة ١٩٠٠ في العنوان التحقي لكتابه التالي – über (psycho . der individuellen Differenzen Ideen zu einer differentiellen Psycho .) إلا أن المبدأ أقدم من ذلك . فقد سبق لنا أن صادفناه في موضوع « المعادلة الشخصية للفلكيين » . ومعرفة لماذا خطأ ما يُرتكب حتماً عند استخدام منهج برادلي هو أمر يعود إلى علم النفس العام . أما تحديد هذا الخطأ لدى كل ملاحظ بمفرده ، بغية تصحيح الملاحظات التي يجريها ، فهو ما يؤلف مشكلة تخص علم النفس الفارقي ، وهي مشكلة مفروضة بحكم ضرورات التطبيق العملي .

ثم أن تجربة فيبير التي سبق الكلام عنها ، تقدم لنا مثلاً آخر حصل في النصف الأول من القرن التاسع عشر. من المعروف أن فيبير اكتشف أن الشخص

الذي يميز بمشقة ٢٩ أونصة عن ٣٢ أونصة، كان يميز بمشقة أيضاً لـ ٢٩ دراخم من الـ ٣٢ دراخم ، هذا بينما تساوي الاونصة الواحدة ثمانية دراخمات . لنضف على ذلك أن فيبير كرر التجربة على ثلاثة أشخاص بحيث تأهل له ثبات النسبة بين أصغر فرق قابل للادراك عند هؤلاء الأفراد الثلاثة ، وبين الضخامة المطلقة للمثير بالنسبة اليهم ، وذلك عندما انتقلوا من الاونصات إلى الدراخمات . إلا أنه إذا بقي كل منهم أميناً مع نفسه (وهـذا الانتظام هو ما يشكل « قانون فيبير ») ، فان هذه النسبة تختلف من فرد إلى آخر. فهي تساوي ٣٢/٢ لدى الشخص المذكور سابقاً ، وهي تساوي لدى الاخرين، ٣٢/٢ و ٣٢/٦ . لقد صعق فيبير بذلك الثبات في النسبة لدى الفرد الواحد نفسه، لا بتغيّرها بين فرد وآخر . وهكذا كان أيضاً اتجـاه فوندت ، وعلى هذا فقد كان علم النفس التجريبي في البدء علم نفس عام لا علم نفس فارقي .

صنفان من الاهتمامات راحا يدفعان تخصص قسم من الاعمـال التجريبية باتجاه دراسة الفروقات الفردية .

– كان البعض من هذه الاهتمامات ، بالاخص نظرياً . فقد نجمت هذه من الداروينية مباشرة كما أنعشتها ، أولاً أعمال ف . غلتون Galton وأدت إلى النمو الهائل للاحصاء المطبق على علم النفس ، وهو نمو كانت ابانه الجلاوبات الجوهرية مدينة بوجودها لبريطانيين ، كما كان لهذا النمو نتائج على توجـه فروع علم النفس الاخرى .

– أما الاهتمامات الاخرى فكانت بالاخص عملية . إن امكانيـة تطبيق علم النفس الجديد على مشاكل اجتماعية ، وهي امكانيـة لم تـخفَ على غلتون ، قد تجسّدت ، في البداية ، في أعمال ج . ماكين كيتلّ (Cattell) .

وبفضل مناهج احصائية مطورة نحو غايت يغلب عليها الطابع النظري ، وبفضل فوز بيني في قياس «سيرورات عليا»، فان هذه التطبيقات قد انتشرت انتشاراً هائلاً في عدد كبير من البلاد ولا سيما في الولايات المتحدة .

١ ـ اصول دراسة الفروقات الفردية

نحن نعرف أهمية الدور الذي تلعبه الفروقات الفردية في نظرية التطور التي اقترحها دارون سنة ١٨٥٩ . وتلك التي من بين هذه الفروقات تيسّر تكيف الفرد مع البيئة. فهي أيضاً ، بحكم ذلك ، تزيد من فرَصِه في البقاء ، وبالتالي في امكانياته بان ينجب ذرية تحوز هي أيضاً صفات صالحة ملائمة ، هذا إذا كانت هذه الصفات وراثية . إن نظرية من هـــذا القبيل كانت تستطيع أن توحي بدراسات تجريبية مختلفة ولا سيما : مدى الفروقات المدركة عند الانسان من حيث النظر لصفات قابلة للقياس ، ومناهج هذه الفروقات، وصفتها الوراثية . وستلقى هذه الدراسات دفعاً حاسماً من قبل نسيب لدارون ، هو ف . غليون .

لقد اهتم السير فرنس غلتون (١٨٢٢ — ١٩١١) وهو عـــالم انكليزي نبيل ، بطريقة باهرة لكنها غير منهجية ، بشتى ميادين العلم في عصره وأشدها اختلافاً . مع ذلك يبدو جلياً أن علم النفس، وبشكل اعـــم ، دراسة الانسان ، هما اللذان انتفعا إلى الحد الاكثر من مجاوباته واسهاماتــه . ويكمن فضله الاساسي في تبيانه جدوى وخصوبــة دراسة علم الاحصاء للفروقات الفردية والوراثية .

قبل غلتون ، كان العالم الرياضي البلجيكي كيتلي (١٧٩٦ — ١٨٧٤) قد اكتشف (١٨٣٥) أن مجموعات من المعطيات المحشودة عن جماعات كبيرة من الناس (وبشكل خاص عن قامات الجنود في الجيش النابليوني الكبير) كانت تتوزع حسب قانون سبق للعلماء الرياضيين أن درسوه(قانون لا بلاس ـ غوس) ، وسبق أن وجد في دراسة أخطاء القيـــاس ان الكثير من الجنود هم ذوو قامة متوسطة ، ثم يأخذ عدد الجنود في التدني شيئاً فشيئاً كلمـــا كان يجري الابتعاد عن المعدل الوسطي باتجاه القامات الكبيرة جداً أو القصيرة جــداً . وفي كل من الاتجاهين لم يكن تناقص عدد الناس متساوياً عند الانتقال من

قامة إلى أخرى : لقد كان في البدء سريعاً ، ثم بطيئاً ، خاضعاً بذلك خضوعاً دقيقاً للقانون الرياضي الذي درسه لا بلاس وغوس . كما أننا نحصل على نتائج من نفس القبيل عندما نقيس مرات عدة الشيء ذاته : نحن غالباً ما نرتكب الاخطاء العرضية في القياس ، وهي أخطاء في الزيادة لا في النقصان ، والاخطاء الهزيلة أكثر تردداً من الاخطاء المهمة . أدّى التقريب بين هذين الضربين من الملاحظات، إلى معطيات ميتافيزيكية لم يستطع كيتلي أن يدفع اغراءاتها عن نفسه وهي : تحاول الطبيعة عند كل ولادة ، أن تحقق « الرجل المتوسط » نفسه وان تأثير « الاسباب العرضية » هو ما يؤدي إلى نشوء تنوع الافراد الذي هم على قيد الحياة . ان « الانتظامات الاحصائية » الملحوظة في الصفات الفيزيولوجية والاخلاقية ، مع إعتبار تنوع الافراد واختلافاتهم، لهي انتظامات تقارن بالقوانين المتحكمة بجاذبية الكواكب . « لقد أقامت الحكمة الالهية بقوانين متشابهة ، التوازن في كل شيء ، في العالم الاخلاقي كما في العالم الفكري أيضاً » . ذلك هو ما ورد في مؤلفه « في النظام الاجتماعي والقوانين المتحكمة فيه [1] (١٨٤٨) ، بمعرض كلامه عن « المهندس المعماري الاكبر للكون » .

لسوف يستخدم غلتون ملاحظة كيتلي بدون ارتباك أزاء هذه التأويلات .

منذ عام ١٨٦٩ ، اقترح غلتون في « عبقرية الوراثة » [2] أن تقاس درجة عبقرية الفرد بنسبة (تردد) الاشخاص الذين ، من بين السكان ، يستطيعون أن يتجاوزوه . وطبق هو نفسه هذا المبدأ في ١٨٨٥ ، وبشكل بقي مذاك وبصورة ثابتة مستخدماً في علم نفس الفروقات « تعيير » — (étalonnage) — الروائز) . وبمناسبة معرض دولي للصحة أقيم في لندن عام ١٨٨٤ ، فتح

---

1 _ Du système social et des loisqui le régissent .

2 _ Hereditary Genius .

غلتون للملأ « مختبر قياس اناسي » حيث كان الزوار يقاسون فيه بسبعة عشر طريقة مختلفة ، ثم كان يستطيع كل واحد فيما بعد ، بمراجعته وحدة نسب مئوية – Percentiles – نشرها غلتون في العالم العالي ، أن يعرف النسبة المئوية من السكان التي تجاوزته في كل من القياسات التي كان قد أجراها .

ومختبر القياس الاناسي (Anthropométrique) في عام ١٨٨٤ ، جدير بالاهتمام أيضاً بسبب المناهج التي استخدمت فيه لاجراء القياسات نفسها . كان غلتون قد نشر كتابه « مباحث في ملكة الانسان وتطورها » (١٨٨٣)[1] وقد لحظ فيه بشكل جلي إنتقال المناهج المعقدة السائدة في مختبر علم النفس التجريبي – المخصصة لتحليل ظاهرة ذهنية بشكل يكون دقيقاً إلى أقصى حد ممكن ، وغير مستخدمة سوى بضعة اشخاص – إلى المناهج المبسطة التي هي أكثر سرعة وتتيح بشكل عملي قياس عدد كبير من الافراد ، وذلك هو ما جعل ممكناً الدراسة الاحصائية للفروق الفردية. ومن ثمة فان هذه الاختبارات سوف يطلق عليها بعد بضع سنين تالية اسم « الروائز » العقلية ، وسوف نتكلم عنها فيما بعد .

أخضع زوار مختبر القياس الاناسي في عام ١٨٤٨ ، لقاء ثلاثة بنسات ، لسلسلة من الروائز الحقيقية . كان يقاس فيها السرعة التي بها يقدر هؤلاء الزوار على الضرب ، وكان يجري عليهم تعيينات للحدّة السمعية والحدة البصرية ، وكانت تعين صفات رؤياهم للالوان ، الخ ... ولسوف يلاحظ أن المعنيّ هنا هو « سيرورات عليا » سوف تشكل مواضيع درس مفصلة في مختبر فوندت ، في تلك الحقبة نفسها .

على هذا ، فان هذه الاعمال مدت قياس الفروقات الفردية من الميدان الفيزيائي إلى الميدان الذهني ووفرت وسيلة بسيطة لتأويل هذه القياسات .

---

1 - Inquiries into human faculty and its development .

لكن الموضوع الجوهري لها ، كان التثبيت تجريبياً لوراثـــة التفوقات أو الدونيات التي يكون قد جرى بذاك تحقيقها . وهذا هو أيضاً منهج احصائي تخيله غلتون ، منهج سيتيح العمل به قيام هـــذا التثبيت ، ولسوف يكون هذا هو الاكتشاف الاخصب لغلتون . ويتعلق هذا الامر بقياس درجـــة التشارك ، الترابط ، بين متغيرات كثيرة ، منها مثلاً : الاشخاص ذوو القامة الكبيرة ينجبون أولاداً طوالاً أكثر ، على الغالب ، من أولئك الاشخاص ذوي القامة القصيرة .

بيد أن الأمر هنا ليس سوى ميل عام . وبفضل غلتون صار يعرف أن يقاس منذ ١٨٨٨ برقم نسبي ، « معامل ارتباط » قوة « الميول » من هذا النوع . (كان غلتون قد حدد المشكلة وأعطاها حلاً أول ، قياس النكوص ، وذلك في عام ١٨٨٨) .

في المؤلّف الذي نشره عام ١٨٨٩ ، وهو كتاب « الأرث الطبيعي » [١] ، ناقش غلتون المفهوم المذكور بشكل أقرب للكمال ،وطبّقه على دراسة الوراثة. بيد أن هذا المفهوم كان يطبق على مسائل عديدة أخرى. فقد وضعت في اغلب الاحيان ، كل ظاهرة بيولوجية ، اقتصادية ، اجتماعية ، بل وفيزيائيـــة أيضاً تحت تأثير التزامن لعدد كبير من الظواهر الاخرى. وهكذا بحيث ان الارتباط الذي يمكن ان يلاحظ بين اي اثنين من هذه الظواهر لا يكون ارتباطاً كاملاً ، نظراً لما يداخله من تأثير « مشوش » ناتج عن الظواهر الاخرى . من هنا كانت المنفعة العامة لإمكانية التعبير برقم ، هو « معامل الارتباط » ، عن درجة الارتباط الملاحظ .

ان تداخل التأثيرات المتعددة هـــذا ، هو تداخل بديهي في مجال علم النفس بشكل خاص ، ولسوف لا ندهش اذ نرى أن هذه المناهج الاحصائية تستخدم

---

1 - Natural inheritance .

في الميدان النفسي في وقت مبكر جداً .

بعد ذلك ستتلقى المناهج هذه ، التي بلغ بها بيرسون (K . Pearson) ، تلميذ غلتون ، درجة عالية من الكمال ، ازدهاراً جديداً عند مجال البحث في علم النفس عن هذه « الاسباب المشتركة » للتغيّر ، التي تمس في الوقت ذاته عدة صفات والتي تكلم عنها غلتون في سنة ١٨٨٨ . وقد استخدم هذا البحث منهجاً عنها سوف يدعى ، بعد بضعة سنوات ، بـ « التحليل العاملي » .

أمام سلسلة من المتغيّرات ذات الترابط المتبادل فيا بينها، هناك سلسلة قياسات من نوع الاناسية، مثلاً نقدر ان نقترح البحث عن الاسباب العامة التي يتمظهر وجودها ، بشكل غير مباشر ، بالترابطات [المتبادلة] بين صفات تحت الملاحظة . إن أعمالاً في هذا الاتجاه قد بدأت ، بشكل يلفت النظر ، في معرض نقد قام به غلتون عام ١٨٨٨ ، لمناهج تحديد هوية المجرمين التي نادى بها الفرنسي برتيون (Bertillon) . كان هذا المنهج يرتكز على استخدام سلسلة طويلة نوعاً ما من اخذ القياسات . أما غلتون فانه تخيل طريقة مختلفة تمام الاختلاف ، وتقوم على اخذ بصمات الاصابع . إلا أن بعزم تلاميذه ، وفي قسم منه بايحاء من ك . بيرسون ، استمروا في دراسة « مسألة برتيون » كما كانت تدعى طريقة هذا الفرنسي . على هذا ففي عام ١٨٩٦ ، اقترح ادجيوورث أن نضع بدل اخذ القياسات ذات الترابط المتبادل ، مُتغيِّرات مستقلة تشتق منها. ثم أن ماكدونيل قد حل عام ١٩٠٢ هذه المشكلة حلاً فعلياً. لكن ادجيوورث وماكدونيل لم يقترحا سوى الوصف الاكمل للاشخاص المقاسين .

إلا أن عالماً نفسانياً انكليزياً ، سبيرمان (١٨٦٣ - ١٩٤٥) ، هو الذي انهى منهجاً آخر لتحليل مُعاملات (coefficients) الارتباط ، وهو منهج رأى فيه صاحبه وسيلة لبلوغ الاسباب المشتركة للتغير التي كان غلتون قد تكلم عنها . وقد نشر في سنة ١٩٠٤ المقال الاول عن منهجه هذا ، كما نشر في ١٩٢٦

كتابه « قدرات الانسان »[١] حيث بذل قصارى جهوده لكي يبين أن المناهج الاخرى التي كانت حتى ذاك الحين مستخدمة في علم النفس تصطدم بعراقيل واعتراضات كأداء لا يقع فيها منهجه الخاص .

ومع « التحليل العاملي » – مع سبيرمان وعمساء نفس انكليز آخرين مثل السير سيريل بورت (C . Burt) والسيد غودفري تومسون (١٨٨١ – ١٩٥٥) بدايات اتجاه جديد في العمل داخل مجال علم النفس ، بل وربما نستطيع القول انها بدايات « علم نفس احصائي » . وبالطبع ، فان التحليل العاملي لم يبق شيمة خاصة بانكلترا إذ انه حظي ، في الولايات المتحدة مثلاً ، بتطور بالغ من حيث عدد الباحثين فيه أمثال : ل . ل . ثورستون (١٨٨٧ - ١٩٥٥) الذي نشر في سنة ١٩٣١ مقالاً وفي سنة ١٩٣٥ مؤلفاً عن منهجه الخاص (مُتَّجَهات العقل)[٢] . وعلماء النفس الانكليز المستخدمون للتحليل العاملي ينزعون غالباً إلى وصف السلوك الانساني بواسطة « عوامل » (فئات وصفية أكثر مما هي أسباب) ذات أهمية متفاوتة : هناك عامل عام ، يمس مُجمل السلوكات التي تقع تحت الملاحظة ، ثم هناك عدد طفيف من العوامل أقل أهمية ويمس كل منها مجموعة سلوكات (لفظية ، رقمية ، فضائية [حيزّية] ، الخ ...) ، ثم هناك تقسيات صغرى لهذه العوامل ذاتها إلى عوامل تصبح أكثر فأكثر عدداً وتنحصر أكثر فأكثر أيضاً . ذلك هو المفهوم « التراتبي » [التسلسلي] للذكاء ، الذي صاغه بورت منذ عام ١٩١٧ وما انفكّ يضبطه ويدققه منذئذ (عوامل العقل)[٣] ، (١٩٤١) . وإلى هـذا المفهوم يبدو انه يمكن إعادة المفهومين اللذين كانا في البدء مخالفين لذلك، واللذين هما: مفهوم سبيرمان (وكان سبيرمان

---

1 - The abilities of man .

٢ – متجهة أو سهم – The Vectory of The miud , Vecteur

3 - Factors of The mind .

متعلقاً في الأصل بنموذج واحد من السبب المشترك هو العامل العام) ، ومفهوم نورستون (الذي لم يستعمل في البـــدء ، في عام ١٩٣٨ ، سوى سلسلة من العوامل المستقلة لم يكن أي واحد منها عاماً) .

على هذا نرى أن علم النفس الاحصائي ، النـاجم عن دراسة الفروقـات الفردية ، قد أنجب منهجاً جديداً في علم النفس العام . في البحث عـــن كيفية تشارك النجاحات (أو الفشلات) في مهمات مختلفة لدى نفس الافراد ، نستطيع أن نحصل على الطريقة التي تترابط وتتشارك بهـــا وذلك بالنسبة للمجموعة معتبرةً من حيث مجملها ، السيرورات التي وضعتها هذه المهمات قيد العمل والتشغيل .

وبدون الرجوع إلى مجلوبات (١٩٢٥ ، ١٩٣٥) احصائي انكليزي آخر ، هو ر. أ . فيشير ، سبق الالماح اليه بمعرض التطور الجديد لعلم النفس التجريبي ، فاننا نستطيع الآن تتبع نمو النظريات والتطبيقات العملية المتعلقـة بالفروقات الفرديـة .

وقد انشىء في فرنسا مختبر لعلم النفس الفارقي ، داخـل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، في عام ١٩٦٤ .

٢ ـ النظريات المتعلقة بالفروقات الفردية

لا ينازع أحد في أن الفروقات الملحوظ وجودها بين الافراد ، تعود في قسم منها لاسباب تكوينية ذات علاقة بالوراثة ، وفي قسم آخر لتأثير البيـــئة . وبالتالي فان أحداً لا ينكر انها قابلة للتغيّر الجزئي ، والجزئي فقط ، بفعل هذه البيئة . ولكن أوار الخلافات يحتدم تماماً حول الاهمية النسبية لكل من هذين العاملين ، وحول اوليّة اثرهما وبالتالي حول حدود الامكانيات المحولة في البيئة .

توضحت أواليّة الوراثة بالعدد الوافر جداً من الابحاث التجريبية التي يشكل مجموعها حقل علم الوراثة (Génétique) . بدأت هذه الابحاث بالدراسات التي قام بها العالم النباتي الفرنسي نودن ، والتي نُشِرت سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ ، ثم بالدراسات التي حققها منديل بمفرده في مورافيا ، والتي نشرت سنة ١٨٦٥ .

ومع ذلك فان علم الوراثة لم يتطور إلا منذ سنة ١٩٠٠ .ثم جاءت دراسات مورغن (T . H . Morgan) ومعاونيه في نيويورك سنة ١٩١٠ فدفعت به إلى الامام ، إذ انها تناولت حشرة ذات خصائص تسهّل التجارب وهي ذبابة الخل أو الدروزوفيل .

وقد تبين ان كل شيء يجري كما لو أن كلا من الصفات المميزة لفرد ما (والتي تفرقه بالتالي عن الآخرين) ترتبط بعامل مستقل هو « المورّث » (Gène) . وتنتقل هذه المورّثات من جيل إلى جيل وفقاً لقواعد حددت بفضل الاحصاءات الرياضية ، (والمؤلّف المشهور بهذا الصدد هو ما نشره فيشير (Ficher) سنة ١٩٣٠ بعنوان : « القاعدة الوراثية للانتقاء الطبيعي [1]») . وتحدد المورّثات أيضاً التكوين [2] الوراثي أو « النموذج الوراثي » (gènotype) للفرد ، ذاك النموذج المستقر والمستقل إلى حد كبير عن مايصيب البيئة الخارجية من تقلبات. ولكن البيئة تؤثر ، مع ذلك ، في التطور والنمو ، بحيث لا ينشأ الفردان ذوا الارث الواحد متماثلين تماماً . واحدى الوسائل المستعملة لمعرفة تأثير البيئة هو بالضبط اجراء المقارنة بين هؤلاء الافراد حيثما يوجدون ، وهم ما يسمون التوائم بحق .هذا علماً ، بأن ابحاثاً من هذا النوع قد بدأت قبل انتشار النظريات الارثية التي اتينا على ذكرها .

سبق لنا ان تتبعنا الجهود التي بذلها غالتون لاقامة الترابط بين الصفات

1- The genetical basis of natural selection

2 - Constitution– ٢ – او : الجبلة –

المقاسة لدى اجيال متتابعة (١٨٧٧) . فلو امكن رد التشابه الملحوظ وجوده بين الآباء والابناء ، كلياً إلى تأثير الوراثة ، لأتاحت اهميـة الترابـط معرفة اهمية هذا التأثير ، إلا انه ليس ضرورياً أن تبدو نفس الامكانات الوراثية عند الاب الابن ؛ كما ان البيئة ، من جهة أخرى ، تحدث بعض تأثيراتها على الاب وعلى الابن على حد سواء ، وهكذا يصعب بعدهـا التفسير .
لكن عرض القضية يكون أفضل عندمـا تدرس اوجـه التشابه بين توأمين حقيقيين (أي مولودين من ذات البويضة المخصبـة بذات الحيوان المنوي) . في هذه الحالة بالفعل ، يكون الثقل الوراثي واحداً ، تماماً ، لدى التوأمـين . فاذا أظهرت الفحوصات الفيزيائية والفكرية الدقيقة تشابهاً بينهما أكبر ممـا هو موجود بين الاخوة والاخوات (أو بصورة أدق ، بـين التوائم « الاشقاء » ، أي الناتجين عن بويضات ومنويات مختلفة) ، فان هذا التشابه الاكثر يمكن أن يسجل لحساب وحدة العوامل الوراثية . ثم انه يجب، عند التأويل، أن يحسب حساب كيفية تنشئة التوأمين : متصلين او منفردين . واذن يبقى التأويـل دقيقاً . كما ان تجميع العدد الكافي من الملاحظات يبقى صعباً جداً لان هذا العدد يجب ان يكون بالفعل مرتفعاً نسبياً ، لكي يمكن تطبيق الاساليب الاحصائية التي تتيح وحدها تقدير اوجه التشابـه والترابط بشكل دقيق .
وتعود إلى غلتون أولاً فكرة هذه الطريقة ، عندما نشر سنة ١٨٧٥ مقالاً حول « تاريخ التوائم كمعيار للتميز بين فعل الطبيعة وفعل التنشئة [1] » . ويكشف غلتون في هذا المقال النقاب عن نتائج استقصاء قام به وذلك بتوجيهه اسئلة إلى توائم . ولم يتبع غلتون في عمله الاسلوب الاحصائي المنظم بل قدمـه بشكل اقاصيص واعاد طبـع هذا المقـال في كتب أخرى في سنة ١٨٧٦ وفي سنة ١٨٨٣ دونمـا تغيير كبير فيه . واستُعمل هـذا المنهج على التوائم كثيراً من

---

1 - The history of twins, as a criterion of The relative powers of nature and nurture .

بعده . وفي الولايات المتحدة كانت الاعمال الاولى في هذا الحقل هي أعمـــال ثورندايك (١٩٠٥) ، ويبدو أنهم الابحاث هي التي قدم بها نيومـــان وفريمان وهولزينغر (Holzinger) الذين نشروا في سنة ١٩٣٧ ، معلومات كاملة ودقيقة عن ٥٠ زوجاً من التوائم المتشابهين [المتوحدين] (identiques) ، وعن ١٥٠ زوجاً من التوائم الاشقاء ، وعن ١٩ زوجاً من التوائم المتشابهـــين المربين كلا على حدة . ولم تقتصر الجهود على تقميش المعلومات الكثيرة ، بـــل تناولت أيضاً توضيح المناهج الاحصائية المستعملة لتفسيرهـــا . ويبدو ان الدراسات التي قام بها س . بورت في انكلترا (١٩٥٥) و ر . ب . كتيل (Catell) في الولايات المتحدة (١٩٥٥) تعتبر نموذجية بهذا الشأن .

لا يمكننا هنا إدراج تفاصيل هذه الاعمال . فتأثير البيئة يختلف باختلاف الصفات المنظور اليها . ولكن هذه الدراسات تؤدي بوجه عام إلى القول بتأثير الوراثة تأثيراً مسيطراً وساحقاً .

إلا أنه أصبح معروفاً أن القوى الوراثية الكامنة في الفرد لا يمكن أن تظهر إلا إذا أتاحت لها بيئتها ، باكراً ، فرص وامكانيـات الممارسة خلال فترة النمو ، قبل سن السابعة أو الثامنة ، حسب قول بعض الكتاب .

نرى بأي شيء يمكن لسائر هذه المفاهيم أو النظريات أن توجـه تطبيقات علم النفس إلى ناحية اعطاء وزن للفروقات الموجودة بين الافراد ، وهذا حسبما يمكن التثبت منها بواسطة الروائز . وفي الواقع ، ففي اطار هذه المفاهيم ، كان « التكوين الارثي النموذجي » (Constitution génotypique) يحدد منذ الولادة مجمل طاقات الفرد الممكنة ، تلك التي يذوي بعضها بفعل عدم الاستعمال خلال السنوات الاولى للحياة . وهكذا تستقر باكراً جداً ، وإلى حـد بعيد ،

الفروقات في الاستعدادات [1] (أي في الامكانيات على التعلم) . وبعدها يصبح من الممكن اعطاء تنبؤات حول امكانات النجاح القادمة في المستقبل في هذا أو ذاك من النشاطات على هذا أنجزت أمثـال هذه التنبؤات وذلك في عديد من البلدان ، على أساس الروائز ، وسيتناول المقطع التـالي بصورة موجزة عامة تطورات هذه التطبيقات . وتجدر الاشارة إلى أن هـذه الاخيرة بدأت قبل أن تنمو النظريات الارثية المنديلية ، وفي الوقت الحاضر أيضاً ، يلـتزم الكثير من الممارسين في علم النفس، بالحقل التجريبي الخالص ولا يشعرون بالحاجة إلى اسناد التقنيات التي يستعملونها إلى نظرية واضحة . ويشكل العلم الوراثي المنديلي الاساس النظري الاكثر تلاؤماً لممارسة علم النفس التفارقي : وهذا واقع اجمع عليه أنصار هذه الممارسة (فقد افتتحت « موسوعة علم النفس التطبيقي » المنشورة من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٥٩ تحت إشراف هـ . بـيرون ، بعرض لنظريات منديل) وأخصامها أيضاً . وذلك لأن هناك علماء بيولوجيين يعارضون العـلم الوراثي المنديلي ، كما ان هناك علماء نفس ينكرون كل أهمية لدرس الفروقات الفردية درساً منظماً . ولا مجال للدهشة ، حسبما سبق ورأينـا ، من وجود تعاطفات وشغفة بين هؤلاء . والحقيقة أن الاتجاهين (التأييد والعداء) قـد ترعرعا بآن واحد ، ابتداء من سنة ١٩٣٠ تقريباً ، وفي نفس البـلد ، ألا وهو الاتحاد السوفياتي .

في سنة ١٩٣١ عقد في موسكو المؤتمر الدولي السابع لعلم النفس التقني وكانت فرصة للمندوبين الغربيين للاعجاب ببعض المنجزات المهمة في مجال عـلم النفس التفارقي ، مثل مصلحة الانتقاء المهني للسكك الحديدية ، حيث المختبر المركزي الذي يحتوي على موظفين مؤلفين من ثمانين من الاطباء وعلمـاء النفس التقنيين والاخصائيين والمستخدمين ، هذا دون أن يعد معها ٢٠ مختبراً ملحقاً ، وعربة

---

1 - Aptitudes

مختبر نقـــال ، تكلف بتوزيع المتدربين وبانتقاء الميكانيكيـين . لكن هؤلاء العلماء الغربيين تعجبوا من سماعهم المناداة بضرورة الإعتماد ، خدمة للعلم ، على المبادىء النظرية للمادية الديالكتيكيـة التي تجلب ، حسب قول هلرشتين ، مثلاً إذا طبقت على أي مجـال من مجالات المعرفة ، لا الوضوح المنظم فقط فيما يتعلق بالمبادىء الاساسية ، ولا المعالجة الصحيحة للموضوع المدروس فقط ، بل تبعث أيضاً الثورة في نظرتنا المستقبلة إلى العلم ، وتساعدنا أيضاً على الانتقال من المعرفة الى العمل ، ومن الدرس إلى التغيير . وعلى أساس هـــذه المبادىء وجهت الانتقادات الجادة للروائز الـتي قد « كيّفت وفقاً لتلاميذ من بيـئة بورجوازية » (لفيتوف) ، والـتي ترمي إلى اعتبارهـا ثابتة خالدة ثبـات [خصائص] فردية ، هي وليدة تأثـير الوسط وبالتالي اذن ، قابـلة للتغيير (ماندريكا) . ظلت هذه الانتقـادات تنمو من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٣٦ حيث صدر على الروائز حكم رسمي . فقد صدر عن اللجنـة المركزية للحزب ، مرسوم يقضي بالغاء معالجة علم الطفل (وهو علم كان يرمي . ابتداء من سنة ١٩٣٠ خصوصاً ، إلى التخصص في دراسة تطور الاطفـال والشبان من وجهـة سيكولوجية) . وكان علماء الطفل يعتمدون ، على نطـاق واسع ، الروائز في فحوصاتهم ، ويعتبرون الفروقات الملحوظة (إما بفعل الوراثـة وامـا بفعل البيئة عموماً) قليلة القابلية للتغيير ، فيضاعفون المدارس المتلاغة خصيصاً مع هذا أو ذاك من المستويات العقلية ، أو مع الطبائع الصعبة ، الخ ... « ان علم الاطفال البورجوازي ، العلم المناقض للعلم ، يهدف إلى حماية الطبقة الحاكمة واذن ... فهو يعمل على إثبات وجود عبقريات خاصة ، وحقوق خاصة تـبرر وجود طبقات مستغلة » ، هذا ما أعلنته اللجنة . وابتـــداء من ذلك اليوم ، تقدمت التربية خطوات على موضوع الفروقات الفردية ، « وعاد الى علم التربية والى المربين اعتبارهم الكامل » . ونالت ابحاث مثـــل ابحاث ماكارنكو (١٩٨٨ -- ١٩٨٣) شهرة عظيمة .

لقد سبق لنا أن تكلمنـا في الفصل الأول ، عن أعمال بافلوف ومدرسته ، الاعمال التي استمرت بدون انقطاع منذ سنة ١٩٠٣ . واثبتت هذه الدراسات، أن الانعكاس المشروط هو نمط من أثر البيئة على السلوك ، وترمي التجارب المعاشة من قبل الفرد إلى إيجاد روابط كثيرة ودينامية بين بعض الاشارات وبعض ردود الفعل . ولو أمكن لبعض هذه التجارب أن تتكرر بشكل كاف ، إذن لـكان للروابط أن تتوضح ،وأن تستقر بل وان تصبح وراثية فيما بعد . وتعزى الفوارق الفردية في هذا الاطار ، إلى مختلف التجارب التي يعيشها الفرد أو حـــق أجداده . بيد أن بافلوف اثبت أن القوانين التي تتحكم بتكوين الانعكاسات المشروطة تختلف باختلاف الافراد الذين يمكن ، من وجهة النظر هذه ، أن ينقسموا إلى أربعة نماذج وفقاً للتقسيم الذي اعتمده ابو قراط : القوي ـ المتزن ـ الجامد (البلغمي) ؛ القوي — المتزن — المرن (الدموي) ؛ القوي ـ اللامتزن (غضوب) الضعيف (السوداوي).

في سنة ١٩٥٤ ، بقي ليونتييف في مؤتمر علم النفس في مونتريال ، يؤكد أن « الصفات النفسية وخصائص الرجال الدقيقة ليست فطرية ، بل تتكون دائماً خلال نمو وتربية الانسان »، وان معرفة القوانين التي تتحكم بتكوين هذه الصفات تتيح توجيه هذه السيرورات » . ولكن ب . تبلوف ، خلال المؤتمر ذاتـــه ، اعترف بأهمية الخصائص الفردية التي هي « خصائص مستقرة ويمكن ان تتيـــح التمييز بين رجل وآخر » ، وان الصفات النوعية [النمطية] ليست ثابتـــة : « فهي قابلة ، بكل تأكيد ، للتغير تحت تأثير ظروف حيـاة ونشاط الفرد » . لكن تبلوف يضيف : يستحيل علينا ، ونحن لا نملك معطيات تجريبية كافية ، ان نقول الآن ضمن اية شروط يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة ومـــا سيكون مقدار أهميتها » .

في سنة ١٩٥٦ ، نشرت المجلة السوفياتية « مسائل في علم النفس » دون مـــا توقيع، مقالاً بعنوان : « المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي

ومشاكل علم النفس » . فبالاضافة إلى التأكيد على بعض المواقف القديمة ، يوجد في المقال إشارات إلى اهتمام جديد بدرس الفروقات الفردية وتطبيقاتهـــا على الاتجاهات المهنية . إلا أنه لا يبدو في الوقت الحاضر ، إن هـــذه الفروقات تستعمل بغية التنبوء بنجاح هذا الفرد أو ذاك .

على العكس من هذا ، وفي بلدان كثيرة اخرى ، نرى أن عدداً كبـــيراً من التطبيقات العملية ، منذ خمسين سنة ، قـــد نجم عن الفرضيات المتعلقة بالدور المسيطر الذي تلعبه الوراثة في ظهور الفروقات الفردية الثابتة . ومعظم الاعمال التي سنشير اليها ادناه مستمدة من هذا المنظور أو من هذه الزاوية . مع ذلـــك كله ، ففي هذا المجال ذاته أيضاً ، نقع على نوع من « التقهقر » يصيب النظريات العامة . ويهتم الكثير من المطبقين ، ونقولها تكراراً ، بالفعالية العمليـــة للمناهج التي يستعملونها أكثر من اهتمامهم بالنظريات التي يزعمون انها تفسّر أو تَشجُب هذه المناهج .

٣ ـ نمو التطبيقات العملية

يعود الفضل في منشأ التطبيقات العملية الواسعة النطاق لمنهـج الروائز ، لى عالم نفساني اميركي اسمه جمس مكين كاتيـلّ (١٨٦٠ – ١٩٤٤) . كان مساعداً لـ غوندت ، في ليبزيـغ سنة ١٨٨٣ ، واهـــتم بالفروقات الفردية التي تجلت من خلال التجارب السيكولوجية العامة التي تحققت في المختبرات . وفي سنة ١٨٨٨ ، اتصل،عندما كان معيداً في جامعة كامبريدج الانكليزية، بغلتون. وكان فضل كاتيل ، يومئذ ، أن وضع موضع التطبيق العملي ، وبشكل موسع ما سبق له ان تعلمه من فونـدت ومن غلتون . وفي سنة ١٨٩٠ ، استعمل لأول مرة كلمة (تست Test)، أي رائز، واجرى بشأنه عدة دراسات، وخصوصاً في مجال الفروقات الفرديـــة . لكن الشهرة الواسعة التي اكتسبها في الولايات المتحدة ربما تهيأت له من براعته كإداري وكمنظـّم ثم من حيويته كمطبق أكثر

من كونه صاحب انجازات علمية : فقد اسس مختبرات، ومجلات علمية ،ومشروعاً تجارياً « هو السيكولوجيكال كوربورايشن » الذي وضع في تصرف الجمهور الانجازات التي كان قد سبق وحققها علماء النفس والتي امكنهم تقديمها في حقل التربية وفي الحقل الصناعي .

مع ذلك فان النجاح العملي لم يتهيأ له مباشرة . فمن سنة ١٨٩٠ حتى السنوات الاولى من هذا القرن كانت الروائز التي طبقها كاتيل وتلاميذه من نفس نمط الروائز التي سبق لغالتون أن اعتمدها ، وكلها تجري ضمن الحدود التي تتيحها المعدات المختبرية وفقاً لتصاميم فوندت: حيث كانت السيرورات الاولية (احساس ، إدراك ، مدة رد الفعل) تحتل مركزاً مرموقاً .

كما تبين أن تنبوءات النجاح المدرسي أو الجامعي المرتكز على هذه الاختبارات قلما كانت قابلة للتحقيق . وقد اتاحت تقنيات الترابط التي اعتمدها غالتون، امكانية تقدير العلاقة بين النتائج المحققة في الروائز وبين النتائج المدرسية والجامعية تقديراً مضبوطاً . وتثبّت جاستروف سنة ١٨٩٣ كما تثبت ويلر سنة ١٩٠١ وغيرهما ، من أن هذه العلاقات ضعيفة ، أو معدومة ، وهكذا مني منهج الروائز بالفشل .

ربما أمكن التذكر (الفصل الاول) انه في هذا الحين بالضبط ، قام «بيني» وهنري، في الطرف الاخر من الاطلسي، يثبتان في مقال لهما عن «السيكولوجيا الفردية » (١٨٩٦) أن خير وسيلة للتمييز بين الافراد هو ما يجري من زاوية « ملكاتهم العليا » (الذاكرة ، طبيعة الصور الذهنية ، الخ ...) وينتقدان بشدة المناهج الفروقاتية [التفارقية] المستمدة من المختبرات. واعتُمد المقال ،في الولايات المتحدة ، من قبل شارب سنة ١٨٩٩، الذي اقترح تطبيق ما جاء فيه، في المجال المهني (في حين أن المؤلفين الفرنسيين لم يريا امكانية تطبيقه إلا « للعالم النفسي وللطبيب ، ولعالم الانتروبولوجيا وحتى للقاضي » . ولكن بيني لم

يتوقّف عند هذا الحد . ففي تشرين الأول من عام ١٩٠٤ اجتمعت لجنة وزارية « كُلفتّ بدرس الاجراءات التي يجب اتخاذها لتـأمين فوائـد التعليم للاولاد اللاسويين » . وقررت هذه اللجنة ان لا يُسحب أي طفـل مشتبه بتخلفه العقلي من المدارس العادية لوضعه في مدرسة خصوصية قبل أن يخضع لفحص تربوي وطبي يشهد أن حالته العقلية تجعله غير أهل للانتفاع من التعليم المعطى في المدارس العادية اكتفاءً وسطيّ الدرجة. وشدد بيني بقوة على ضرورة الحاجة إلى طريقة موضوعية في الفحص وقدم بالمشاركة مع سيمون « السلّم » المشهور باسمه هو ،والمكون من عدد كبير من الاختبارات القصيرة المتنوعة، وغير البعيدة عن الاوضاع المألوفة والموجهة كلها إلى «السيرورات العليا». وظهرت الصياغات الثلاث له سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و ١٩١١ في مجـلة « السنة السيكولوجية » . وسرعان ما ترجم « السلم » في الولايات المتحدة من قبل كودارد ، ثم هيـلي (١٩١٠ ، ١٩١١) ، ثم كيفه «ترمـان» (١٩١٦، ١٩٣٧). وبدت التنبؤات المرتكزة على « العمر العقلي » عند الرد (وهو العمر الوسط للاولاد السويين الذين أحرزوا نفس النجاح في السلم) أفضل من التنبوءات التي تحققت حتى ذلك الحين بموجب الروائز « الاولية » المعتمدة عند غالتون وكاتيل . وفي هذا إشارة إلى بعث جديد لمنهج الروائز ، في الولايات المتحدة أولاً ثم في الكثير من البلدان فيما بعد .

ويستحيل الآن تتبع مراحله بالتفصيل، إلا أنه يبدو أن الاتجاه نحو البحث عن الفروقات الفردية من زاوية الصفات المعقدة ، المتراكبة ، التي سبق لنا أن تتبعنا مظاهرها الأولى ، يوجد في مناسبات اخرى : كتمييز فرد عن طريق « جانبه السيكولوجي » (بروفيل نفساني) ، أي عن طريق رسم بياني يمثل بشكل متماسك تأليفي ، قدراته العليا ومواطن ضعفه الـتي تتجلى في مجالات متعددة (روسوليمو [1] ١٩٠٩ ، وكلاباريـد [2] ، ١٩١٦) ؛ وكاستعمال

1 - Rossolimo

2 - Claparède

اختبارات « الشخصية » أو « المزاج » التي تضاف إلى اختبارات الذكاء أو الاستعدادات ، خصوصاً بعد سنة ١٩٣٠ ؛ أو كوصف النتائج التي حصل عليها المرشح بمفردات من « العوامل » المعزولة جانباً عن طريق « التحليل العاملي » الذي سبقت الاشارة اليه (مصلحة الاستخدام في الولايات المتحدة، ١٩٤٥)، الخ ...

وفي فرنسا قام العالم النفساني أ . تولوز [1] ، (١٨٦٥ – ١٩٤٧) بدور مهم في تطوير السيكولوجيا التفارقية (وفي غيرها من المجالات إذ أنه أسس مع سيموني (Simonnet) جمعية علم الجنس ؛ومع «لوجيي» جمعية علم انماط الحياة (Biotypologie)؛ كما أنه شرع في تأسيس جمعية علم الشيخوخة) . وعندما أراد دراسة العبقرية التي كان يتساءل عن مدى علاقتها بالجنون ، اخضع لسلسلة من الفحوصات : أ . زولا ، هنري بونكاري ، الخ ... ولما كانت المناهج المستعملة لا ترضيه دقتها فقد عمل على تحسينها ونشر في سنة ١٩٠٤ ، مع ن . فاشيد[2] و هـ . بيرون ، كتاب « تقنية السيكولوجيا التجريبية » ، التقنية التي استعملت فيما بعد كأول أساس مناهجي لتطبيقات السيكولوجيا التقنية في عمليات الانتقاء والتوجيه المهني .

ففي الانتقاء ينحصر الامر في اختيار من له الحظ الاوفر في النجاح من المرشحين المتقدمين لأشغال المركز . وكان فحص العمال بواسطة الروائز ، قد تحقق في فرنسا ، ابتداء من سنة ١٩١٠على يد«لاهي»[3](١٨٧١ – ١٩٤٣)، حد أعوان تولوز . وكانت د . ونبرغ [4] ، (١٨٩٧ – ١٩٤٦) ، مساعدة الفيزيولوجي هـ . لوجيي قد قامت مع ر . بوناrديل باعمال مهمة في هذا الشأن .

وفي التوجيه المدرسي والمهني كانت الغاية تسهيل تكييف الاولاد والشبان مع الحياة المدرسية ومع عالم العمل . وأول من قام بتطبيق مناهج السيكولوجيا

---

1 - Toulouse
2 - Vaschide
3 - Y . M . Lahy
4 - Weinberg

الفارقية على التوجيه المهني في سويسرا ، هو كلاباريد (١٨٧٣ - ١٩٤٠) الذي أسس سنة ١٩١٢ مع بوفي [1] ، معهد جـــان جاك روسو ، والذي كتب ، خصوصاً ، كتاباً بعنوان « كيف تشخص قدرات التلاميذ » (١٩٢٣) والذي كان له تأثير عالمي واسع . وتتلمذ عليه فرنسي اسمه ج . فونتيني [2] (١٨٧٩ - ١٩٤٤) ساهم في تأسيس « التوجيه المهـــني » الفرنسي ، الذي اتسع امتداده بفضل اهتمام هـ . و م . بيرون ، وهمـــا مساعدان آخران لـ تولوز : ففي سنة ١٩٦٥ ، بلغ عدد المستشارين العاملين في حوالي ٣٠٠ مركز أو ملحق مركز ، ما يقارب من ١٣٠٠ شخصاً . واستبدل تدريجياً الفحص الاساسي الجاري في آخر الدراسة بعمل متواصل يستمر طيلة فترة الدراسة بغية ايجاد مزيد من الملاءمة مع الوسط المدرسي والمهني .

---

1 - Bovet .

2 - Fontegne .

٤

علم النفس المرضي والمنهج العيادي

١ - نظرية ريبو

٢ - نظرية جانيه ودوما

٣ - الايحاء ونزعـــة التنويم

٤ - التحليل النفسي

٥ - المنهج العيـادي وعلم النفس العيادي

إذا كان من الممكن استخلاص بعض الاتجاهات المشتركة من بين مختلف الابحاث التي سبق أن أوردناها ، فيبدو أن واحداً من بين الاتجاهات الاساسية هو ذاك الذي يؤدي بالعالم النفسي إلى مدرسة الاحداث [الوقائع] . ان سلوك المرضى الذهنيين [العقليين] ، الذي هو فئة خاصة من الاحداث ، يشكل القاعدة التي عليها يبنى علم النفس المرضي (الباتولوجي) .

والرجل الذي ساهم بشكل قاطع في تكوين شخصية علم النفس المرضي – الذي هو في أساسه علم نفس فرنسي – لم يكن طبيباً بل فيلسوفاً ، انه ت . ريبو .

١ - ت . ريبو (١٨٣٩ - ١٩١٦)

كان ، والحق يقال ، فيلسوفاً قاسياً بحق الفلسفة التي تعلمها في مدرسة دار المعلمين تلك التي دخلها سنة ١٨٦٢ . وفي سنة ١٨٧٠ نشر كتاب « **علم النفس الانكليزي المعاصر** » الذي كان لمقدمته دوي كبير . ففيه أكد على أن علم النفس يجب أن ينفصل عن الميتافيزيكا ، هذا بعد تركه لهذه الاخيرة درس « الاسباب الاولى » والاكتفاء بالملاحظة العلمية للوقائع التي هي غير « الملاحظات الداخلية » . فعلم النفس يمكنه بالواقع أن يشمل « كل ظاهرات الفكر عند جميع الحيوانات وان يتفحص لا الشكل الراشد من هذه الظاهرات فقط ، بل والمراحل المتتالية

لنموها ايضاً ، وبذلك فـان حقله يتسع ، بشكل شاسع والى مـا لا تخوم له تقريباً، للابحاث والتحقيقات ». ثم أن استقلال علم النفس عن ما بعد الطبيعة [الميتافيزيكا] لا يعني بالضرورة ذوبانه بالفيزيولوجيا . وهكذا فبعد أن صور ريبو وحدد مجال علم نفس الحيوان ومجال علم النفس الوراثي [1] ، أخذ يجوس ويكتشف بنفسه ، عبر مؤلفاته اللاحقة ، مجال علم النفس المرضي .

أما الوقائع اللازمة له فقد أخذ يلتقطها من بين الملاحظات الهائـلة المشتتة « في كتب الطب ، وفي موسوعات الامراض العقلية ، وفي الكتابات التي وضعها مختلف علماء النفس » . كما شاهد في الاختلال المرضي بديلاً حقيقياً يحل محـل المنهج التجريبي . فهـذا التفكك يستقر في الواقع وفقـاً لنظام مستقر ثابت ، بموجبه يهلك الجديد قبل القديم ، والمعـقد قبـل البسيط . إذن ، يحقق لنا « التحلل » [2] المختلف الدرجات، تحليـلاً للسيرورات على اختلاف مستوياتها ، وهي السيرورات التي لا يمكننا الاشتباه بوجودها طالما كانت مندمجة متكاملة في السير السوي في سبيل تأدية عملها. وقام ريبو يطبق هذه الطريقة في مؤلفات جلبـت له شهرة طبقت الآفـاق ، وهي : « أمراض الذاكرة » (١٨٨١) ، « امراض الارادة » (١٨٨٣) ، « امراض الشخصية » (١٨٨٥) . ثم أصبح استاذاً في السوربون سنة ١٨٨٥ ثم ، في سنة ١٨٨٨ ، في الكوليج دي فرانس وبالتحديد على منبر السيكولوجيا التجريبية والمقارنة وهو منبر أوجد من أجله بفضل رينان. وفي سنة ١٨٩٦ ، أقر في كتابه « **علم نفس الاحساسات** » ، موافقاً فرويد – بل وربما متقدماً عليه – أولوية الحياة الوجدانية وتفوقها ، حيث تلعب فيها الميول ، التي تكون غير واعية في قسم منها ، دوراً أساسياً يمكن ان يظهر بعدة اشكال: اما على أثر توقف النمو الوجداني (« نزعة الطفولية السيكولوجية » التي نادى

---

1 - Génétique

2 - Dissolution

بها ريبو تبشر بـ «التخلف الوجداني » الذي نادى به فرويد)، واما بـ « تحلل» المكتسبات المستجدة . ثم عاود في سنة ١٩١٤ ، البحث على « الحياة اللاواعية او المحركات » .

ونظراً لأسفه على عدم استطاعته ملاحظة المرضى ملاحظة مباشرة ، بحكم إنه لم يكن طبيباً ، فقد تتطلب من تلاميذه ثقافة مزدوجة ، فلسفة وطبية ، مقيماً بذلك عرفاً ، غالباً ما استمر عليه في فرنسا ، اساتذة علم النفس في السوربون وفي الكوليج دي فرانس (ب. جاني، ج .دوما، هـ .فالون، . ش . بلونديل ، بوايي ، د. لاغاش .

وهكذا فبتشييده صرح منهج علم النفس المرضي ، استعمل ريبو ككل المجددين ، مفاهيم ، ومدد ميولاً كانت قد سبقته بظهورها أو عاصرته .

ومنذ القرن التاسع عشر أظهر أطباء نفسانيون باريسيون (مورو دي تور، بايارجير [1] اهتماماً بعلم النفس وخصوصاً بعلم النفس الذي نادى بـه مان دي بيران . وهكذا يمكن الكلام بشأنهم عن « مدرسة طبية سيكولوجية » . من جهة اخرى ، أخذت تظهر الحاجة إلى استعمال المنهج التجريبي في مجال علم النفس ، من مختلف الجهات : ففي كتابه « علم النفس الالماني المعاصر » لسنة ١٨٧٩ (الذي كان عنوانه الصغير : مدرسة تجريبية)،اشار ريبو ، فيما اشار ، الى أبحاث فكنر وفوندت. كما حقق المنهج التجريبي انتصارات باهرة ، في مجال آخر قريب ، وهو الفيزيولوجيا . وكان أن صرح كلود برنار -الذي دشن سنة ١٨٥٤ منبر الفيزيولوجيا التجريبية في السوربون - سنة ١٨٦٩ ، أن الظاهرات الفكرية قابلة لان تفسر من قبل العالم الفيزيولوجي .

وكان قد بقي أن يُرى في الملاحظة المرضية [الباتولوجية] البديل المعادل، للمنهج التجريبي .فبهذا الصدد سبق لـ « لاليمان»[2] أن عرض سنة ١٨١٨ ،

---

1 - Moreau de Tours . Baillarger

2 -. Lallemand

في اطروحته، اقتراحات باتولوجية تهدف الى توضيح عدة قضايا فيزيولوجية.
وبعده، جاء كلود برنار يؤكد بسلطان أقوى التشابه الاساسي بين الباتولوجي والسوي في كتابه «مدخل الى دراسة الطب التجريبي» (١٨٦٥)؛ ويلح أيضاً على فائدة المنهج المرضي في مجال الفيزيولوجيا. لكن ريبو اخذ عن عالم الاعصاب ج. هـ. جاكسون (١٨٣٥ – ١٩١١) فكرته الاساسية عن «التحلل». وقام ج. ديلي يوضح (١٩٥١، ١٩٥٣) القربى القائمة بين فكرة ريبو وفكرة جاكسون، وكلا الرجلين كانا يكنان اعجاباً بالغاً بالعقيدة التطورية التي نادى بها الفيلسوف الانكليزي هـ. سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣). فبالنسبة إلى هذا الاخير تعتبر الافكار المتولدة لدى فرد، موضوع عدة مرات في نفس الموقف، على انها وراثية (فكرة سنلقاها، كما رأينا، عند بحث الانعكاسات الشرطية التي نادى بها بافلوف)، وذلك هو أصل الغريزة. وتتكون الذاكرة والذكاء (المعرفة)[1] فيما بعد، انطلاقاً من الغريزة: تتوالد السيرورات المعقدة انطلاقاً من السيرورات الاكثر بساطة وبصورة اندراجية متراتبة. اخذ جاكسون يطبق هذه العقيدة على الامراض العقلية التي يحقق مسيرها تقهقراً يتبع، باتجاه عكسي، نفس المراحل التي في التطور. ويكون الجهاز العصبي مؤلفاً من مراكز تشكل تراتباً (اندراجاً): أي تكون فيها المراكز الدنيا هي الاكثر اوتوماتيكية، وكل مركز يسيطر على المراكز التي هي دونه، يوضع بذات الوقت في موضع التبعية بالنسبة إلى المراكز التي فوقه. أما المراكز العليا فهي الاكثر تعقيداً، وهي التي تتيح التكيفات الشديدة التمايز والمعقدة. أما المراكز الاعلى، والتي هي في أعلى السلسلة المتراتبة، فهي أيضاً أشد المراكز ضعفاً وعطباً. فالمرض أول ما يصيبها، آخذاً معه القدرات السلوكية المتعددة، ومحرراً القدرات الاوتوماتيكية المضبوطة والمراقبة قبل ذلك. وقد استعمل ريبو هذه الافكار التي ظهرت بين سنة ١٨٦٨ و ١٨٨٤ بصورة جلية عقب سنة ١٨٨١. كما ظلت

1 - Cognition

هذه الافكار تحتفظ بمكانتها ، مع بعض التحفظات حول معنى « التراتب »[1] وحول التماثل[2] (التطابق) المضبوط لمراحل التطور والنكوص .

عاون «تين» ريبو في انطلاقته ،حيث ادرك الاول بدوره اهمية السيكولوجيا المرضية ، كما ادركها رينان . ونشر هـذا الاخير سنة ١٨٩٠ مؤلفاً كتبه سنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ عن « مستقبل العلم » ، ناهض فيه السيكولوجيا القديمـة التي كانت علماً تجريدياً عـن الانسان الراشد والمتحضر ؛ واقترح درس الانسان اثناء تطوره ، ودراسة الولد ، والبدائي ، والمريض . وهكذا نرى أن أعمـال ريبو جاءت تدخل في صميم هذا البرنامج .

٢ - جانيه (١٨٥٩ - ١٩٤٧)
و ج ٠ دوما (١٨٦٦ - ١٩٤٦)

كان جانيه ودوما من تلاميذ ريبو . وكانا معاً من خريجي دار المعلمين ، ثم لفترة ما ، زميلين في كلية الطب . أسسا معـاً ، سنة ١٩٠٤ ، « جريدة علم النفس السوي والمرضي»التي اشرف عليها ابتداء من سنة ١٩٣٨ ش. بلونديل - الذي مات في السنة التالية - ثم ب.غييوم ١٨٧٨ - ١٩٦٢ وي.ميرسون. وقد وقعا معاً المذكرة التي خصصتها مجلة « الزمـــان » بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩١٦ لريبو الذي كان مأتمه سيجري في اليوم التـالي. كان دومـــا تلميذاً لـ جانيه عندما صار هذا الاخير ينوب عن ريبو في «الكوليج دي فرانس» قبل ان يحل محله سنة ١٩٠١ ٠ ويبدو ان ما قدمـــه جانيه كان اكثر اصالة - بنظر معلمهما المشترك - من الشيء الذي قدمه دوما .

سرعان ما توجه بيير جانيه انحو الفلسفة . لكن خلال ذلك حرضه عمه الفيلسوف بول جانيه على اكمال ثقافته العلمية أيضاً ، إذ أن هذا الاخير كان يأخذ

---

1 - Hiérarchie : تسلسل تراتبي ، تدرج الى اعلى فأعلى

2 - Symétrie

على نفسه هذا النقص . وهكذا درس الفيزيولوجيا مع داستر ، ثم الطب . وفي سنة ١٨٨٢ ذهب يعلم الفلسفة في كليات الريف بعد أن اجيز في الفلسفة ، وبعد ان درس سنتين من الطب . وظل بذات الوقت يعمل في مستشفى الهافر ، حيث أسس قاعة مخصصة للمرضى العصبيين ، اسماهـا « قاعة القديس شاركو » على اسم عـالم الاعصاب الشهير في مستشفى سالبتريير الذي سنأتي على ذكره فـيما بعد . وإثر ابحاث جسورة ، ومزعجة شيئاً ما بالنسبة إلى اتجاهه في المستقبل ، على « التنويم عن بعد » (كان التنويم المغناطيسي [1] ، كما سنرى ، موضة العصر يومئذ) ، نشر سنة ١٨٨٩ اطروحته عن «التلقائية النفسانية» [2] . وبعدذلك عاد إلى باريس ، حيث بدأ يبذل نشاطاً مكثفاً خصصه للتعليم ، ولدراسة الطب التي رجع إليها ، ولمختـــبر علم النفس المرضي الذي صار تحت إدارته ابتداء من سنة ١٨٩٠ في عيادة سالبتريير . وكان يعطي دروساً في السوربون عن عـــلم النفس التجريبي ، وينوب عن ريبو في الكلية . من بـــين تلاميذه هـ . بيرون الذي أصبح امين سره في مختبره في السـالبيتريـير . وفي سنة ١٩٠١ تخلى ريبو عن مقعده في الكلية لجانيه . واحتفظ هذا به حتى سنة ١٩٣٥ ، معطياً فيها تعليماً كان دائماً مشوقاً ومهماً سواء من جهة مزاياه في العرض التي اجتذبت كل من سمعه ، أو من جهة عمق افكاره الاصيلة التي ضمنها العديد من مؤلفاته ولا سيما : « حالة المهسترين العقلية » [3] (١٨٩٢) ، « العصابات والافكار الثابتـة [4] (١٨٩٨) ، « الوساوس والوهن النفسي » [5] (١٩٠٣) ، « العُصابات » [6]

---

1 – Hypnotisme .

2 – L'automatisme psychologique التلقائية النفسانية

3 – L'Etat mental des hystériques .

4 – Névroses et idées fixes.

5 – Les obsessions et la psychasthénie .

6 – Les névroses .

(١٩٠٩) «الاستطبابات النفسانية»[1] (١٩١٩)، من «الخوف إلى الوجد»[2] (١٩٢٦)، «تطور الذاكرة ومفهوم الزمن»[3] (١٩٢٨)، «الذكاء قبل الكلام»[4] (١٩٣٦).

نجد لدى جانيه بعضاً من افكار ريبو، اما «استقاء» مباشراً، واما من جراء التأثيرات المشتركة (اتجاهات مدرسة «الطب النفساني» في القرن التاسع عشر و«مين دي بيران» خصوصاً) وأولها بالطبع، اهتمامه بالمنهج المرضي. وقد شدد، هو أيضاً، على اصالة علم النفس واستقلاله عن الفلسفة وعن الفيزيولوجيا. أما من جهة المنهج، فقد ركز أيضاً على ضرورة الاكتفاء بمراقبة الاعمال الخارجية والتصرفات (Conduites). إلا أن تصرفات جانيه هذه، هي ملاحظات من مستوى غير مستوى ملاحظات العالم السلوكي، الذي يعد المرات التي يتجه فيها الجرذ الموضوع في متاهة نحو الممر الايمن. فالفئات (المقولات) التي يرمي اليها جانيه أوسع بكثير، إذ تتضمن مجاميع من أفعال ذات معنى، وذات هدف، وتوحد فيما بينها قيمتها الوظيفية المشتركة. ف «تصرفات الظفر» مثلاً، تتوافق مع «هدر القوى الاحتياطية»، وتتضمن أيضاً العمل الجنسي، كما تتضمن كذلك الالعاب أو الدعابات. واذن، يندمج تاريخ نمو الفكر البشري بتاريخ التصرفات. فالذاكرة مثلاً، تظهر عندما يتوجب على الحارس الموضوع خارج المعسكر أن يكون قادراً على تحذير بني جنسه، ليس في اللحظة ذاتها التي يظهر فيها الخطر، بل عقب ذلك بقليل، عندما سيقفل عائداً معهم. لا كما يحدث عند الحيوانات حيث لا تظهر الذاكرة إلا عند اللقاء المباشر مع

---

1 – Les médications psycologiques .

2 – De l'angoisse à l'extase .

3 - L'évolution de la mémoire et de la noton du temps.

4 – L'intelligence avant le Langage .

القطيـــع .

وهكذا يكون العمل في أساس الفكر . وغير ذلك، يُعتبر الفعل اعتـــاق ميل ، أو اعتاق « استعدادٍ للقيـــام » بسلسلة من الحركات المتتابعة في نظام ما » . اذن ، تتراتب التصرفات المختلفة (وبالتالي الميول المختلفة، أو الوظائف النفسانية المختلفة) . بعض هـــذه التصرفات يتطلب كمية كبرى من « القوة النفسانية » ودرجة كبرى من « التوتر » . تلك هي التركيبات [1] الجديدة التي تتناول احداثاً متعددة ، كالتركيبات التي يتطلبها العـمل الفعال على الواقع ، « وظيفة الحادث الواقعي [2]» . هنـاك تركيبات اخرى تتطلب جهداً أقل وتوترا أدنى : تلك هي النشاطات المتزهة ، والتفكير التجريدي ، ثم الوظائف المتناولة صوراً ذهنية ، وردود الفعل الانفعالية والحركات العضلية غير النافعة . لاحظ اي . ميرسون سنة (١٩٤٧) أن مفهوم التوتر هذا يتلاقى مع الفرضيات التي قال بها مودسلي ،وسبنسر (الذي اشرنا إلى تأثيره على ريبو) و «هوفدن» وبرغسون . يمكن ايضاً ملاحظة وجود مفهوم جـد قريب من مفهوم التوتر في نظريات علماء النفس الاحصائيـين ، هذه النظريات التي تشير جميعها إلى وجود عامل عام يؤوّل على أنه طاقة ذهنية (سبيرمـان) . ومهما يكن من أمر ، فان جانيه يدل على انه – في العصابات (لا سيما في « الوهن النفسي ») – تكون الوظائف التي تتطلب درجةعالية من الجهد هي الاولى التي يُبلغ اليها وتزول ،في حين أن الحالات الدنيا ، الاكثر تلقائية (اوتوماتية) تستمر ، بل احيانـــاً تتفاقم . وهذه الملاحظة توصلنا إلى جاكسون عبر ريـبو . إلا أن جانيه يعلن ارتكازه على ابحاث فرنسية سابقة لما قام به جاكسون (جوفروا سنة١٨٢٨) . ويبدو الدور الذي يعزوه إلى ريبو ، عدا « الدفعة المدهشة التي اعطاهـــا

---

1 – Synthèses .

2 – Fonction du réel .

للسيكولوجيا العلمية » ، واضحاً تماماً في هذه الجملة من المحاضرة التي خصصها له ، في الكوليج دي فرانس ، يوم الاحتفال بوفاة سلفه بالذات : « لقد اعاد ريبو الاعتبار الى التراث الفرنسي ، وقد نجح في احياء وفي ادخال منهج دراسة – متواضع بلا شك ، ولكنه ضروري – إلى حقل التعليم » .

شدد ج . دوما ، عندما مثّل ، سنة ١٩٣٩ ، اكاديمية الطب واكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية في احيـاء الذكرى المئوية لولادة ريبو ، على الاشارة إلى تأثير ريبو المباشر والدائم على فكره فقال : « انني اتشرف بالكلام امامكم كتلميذ قديم لتيودول ريبو . لقد عملت ، منذ زمن مدرسة دار المعلمين ، تحت ادارته . تتبعت محاضراته في السوربون وفي الكوليج دي فرانس ، طيلة الفترة التي علّم فيها هناك . ولم أكتب شيئاً ، دون ان استعمل مناهـج العمل التي اخذتها عنه . وقد قدمت له جميع كتبي اهداء ...وطيلة ثلاثين سنة كانت نصائحه ومحبته تشكل العون لي في كل ما أعمـل . لقد تتلمذت عليه طيلـة سنوات وما زلت من مريديه الان والى الابد » .

عقب دخول دوما مدرسة دار المعلمين سنة ١٨٨٦ ، التقى بريبو سنة ١٨٨٧ في مكتب « المجلة الفلسفية » التي انشأهـا هذا الاخير سنة ١٨٧٦ . وبعد أن استمع الى نصيحته باكمال ثقافته الفلسفية بالثقافة الطبية ، تسجل دوما في كلية الطب وتخرج استاذاً في الفلسفـة سنة ١٧٨٩ ، ودكتوراً في الطب سنة ١٨٩٦ بموجب تقديم اطروحة حول « الحالات الفكرية في السوداوية »[1] . واصبح ، منذ سنة ١٨٩٧ ، رئيساً لمختبر علم النفس التجريبي في عيادة الامراض العقلية في كلية الطب ، وظل محتفظاً بهذا اللقب طيلة اربعين سنة باعتزاز بالغ . واذ نال شهادة الدكتوره في الاداب سنة ١٩٠٠ ، على اساس اطروحته المتعلـقة ب «الترح والفرح» [2] ، فقد خلف ب .جانيه كمكلف بمحاضرات عن علم النفس

---

1 – Les états intellectuels dans la mélancolie .

2 – La tristesse et la joie .

التجريبي في كليـة الاداب . كان له تأثير عميق وشخصي في فرنسا وفي الخارج خصوصاً في اميركا اللاتينية ، وذلك لكونه رجل ثقافة وفكر ، واستاذاً لامعاً تنال دروسه نجاحاً بالغاً .

خصص القسم الاكثر اصالة من عمـــله لدرس الانفعالات (مثل كتاب «الابتسام والتعبير عن الانفعالات»[1] عام ١٩٠٦ ،الخ ، ..) ،تلك الانفعالات التي استعمل لاجلها جميع موارد الفيزيولوجيا وثرواتها ؛ وجمع العديد من الملاحظات حول كيفية عمل المراكز العصبية ، والجهاز الودّي (السمبتاوي) ، والغدد الصماء ، وجرت مقارنتها بالملاحظات السيكولوجية والسيكولوجيا المرضية . وكان كل عمله مرتكزاً على مسلمة الهوية (الوحدة والتشابه التام) ، الأساسية للأواليات السوية والمرضية ،وهي المسلمة الموروثة عن كلود برنار والمرتكزة على منهج ريبو ، وذلك بعد أن اكملها واغناها . واتاحت له الحرب فرصة تطبيق هذا المنهج على قضايا اخرى هي : « الاضطرابات العقلية والاضطرابات العصبية الناتجة عـــن الحرب »[2] (١٩١٩) . ثم ، زيادة على ذلك ، حقق دوما انجازاً هامــاً وذلك بتوجيهه نشر كتاب « موسوعة علم النفس »[3] (١٩٢٣) ، أعقبها بعد سنة ١٩٣٠ بـ « موسوعة جديدة في علم النفس » . ربما كان لهاتــين الموسوعتين الفضل في تعريف طلاب علم النفس باسم دوما . لقد ساعد في تأليفهــما اعاظم علماء النفس الفرنسيين على اختلاف ميولهم ونزعاتهم . فهل حققت هذه النشرة تماماً المقاصد الاولى التي هدف اليها مديرها ؟ يبدو ان ذلك لم يتحقق . إذ يقال ان دوما قد اراد لكتابه « الموسوعة » هـــذا ان يعبر عن عقيدة ، هي عقيدة مدرسة علم النفس الفرنسية التي تعتبر بنظره عقيدة ريبو . وقد اهديت

---

1 – LeSourire et l'expression des émotions .

2 – Troubles mentaux et troubles nerveux de la guerre .

3 – Traité de psychologie .

اليه الموسوعة بهذا البيت الشعري اليوناني المرفوع الى زوس : « خرجنا نحن منك » . والواقع ان كلاً من معاونيه حرر فصلا ارتآ ، بنفسه بحيث يمكن القول ان العمل يتميز بغناه اكثر مما يتميز بانسجامه . وسواء اثار هذا العمل المتعة ام الرثاء ، فان مدرسة سيكولوجية فرنسية « ذات عقيدة » بقيت – وما تزال – غير موجودة بعد .

٣ ـ الأيحاء ونزعة التنويم المغناطيسي

مدرسة السالبتر يير

كان ريبو ينصح تلاميذه ان يدرسوا الطب ، وأن يروا بأعينهم مرضى . باتباع هذه النصيحة ، دخل العديدون ضمن « حلقة تأثـير » عالم الامراض العصبية الشهير ج . م . شاركو ١٨٢٥ – ١٨٩٣ .

لكونه رئيس مصلحة في مستشفى السالبتريير عام ١٨٦٢ فقد كان يعطي هناك ابتداء من سنة ١٨٦٦ ، دروساً يتناول بعضها امراض الجهاز العصبي . ولقد اخذ على عاتقه سنة ١٨٧٠ ، المهسترين « غير الجانين » ؛ ثم اصبح استاذ التشريح المرضي في كلية الطب في باريس سنة ١٨٧٢ . ثم في سنة ١٨٧٨ شرع في ابحاثه عن التنويم المغناطيسي ، حتى حصل في سنة ١٨٨٢ على منبر عيادي للامراض العصبية انشيء خصيصاً من اجله في السالبيتريير ، وسرعان ما اكسبه هذا شهرة عالمية .

بالرغم من ان تاريخ مدرسة السالبيتريير يهم مباشرة الطب اكثر مما يهم علم النفس ، الا اننا لا نستطيع اغفال ذكرها هنا . اولاً لأنها كانت دون شك مزاراً لعلماء نفس امثال ب. جانيه ، وأ. بينيه ، أو س. فرويد . بل وربما لان الابحاث التي جرت فيها حول الايحاء وحول التنويم (الاصطناعي) عند المهسترين تتصل بتيار من الاهتمامات ذات الاثار المهمة في مجال « علم النفس الدينامي » .

يدرس علم النفس الديناميكي وفقاً لما يمكن ان يعرّف به بالمجـاز ، القوى

« الحوافذ »، و «الميول» ، و «النزوات»[1] التي يبدو انها توجّه، لهنا ولهناك ، منطلق نشاط الفرد ابتداء من نشاطه الحركي البسيط حتى استخدامه لذكائه . يتجلى وجود امثال هذه القوى واضحاً تماماً لدى هذه الفئة من المرضى الذين لا تظهر فيهم اية اصابة عضوية ظاهرة للملأ ، والذين يدل جهازهم الذهني ، في بعض الاحيان على الاقل وضمن اطار محدود ،على قدرة على العمل ؛ والذين في تصرفهم دلائل تشير الى عدم كال التكيف. هذه الاضطرابات او الامراض ، عصابات او ذهانات [2]، معروفة منذ زمن بعيد؛ وكانت طبيعتها توحي بهذه الفكرة،فكرة ان الادوية التي تُزرع في الجسد ليست مما يصح لها ، مادام الجسد ظاهر السلامة والمعافاة . ذلك في حين تتوجب معالجـــة مباشرة للسيرورات الكامنة المسؤولة عن الاختلال الملحوظ .فلماذا لا يتم احلال ارادة المعالـج [3] المدرب محل ارادة المريض المتداعية ؟ هناك سبيل الى ذلك. ففي بعض الاحوال، يمكن اصطناعياً ، وضع بعض الاشخاص في حـالة قريبة من النوم ، تسمى بالتنويم (هيبنوز) ؛ يكون فيها هؤلاء الاشخاص مطيعين تماماً لما يوحى اليهم ،فيجيبون عن كل سؤال يوجه اليهم ، وينفذون كل امر يعطى لهم ، اما مباشرة واما بعد اليقظة . ويسمى بمجموع المناهج التي يمكن ان تبعث ايحائياً هـذا الوضع ، بالتنويم المغناطيسي (علم التنويم ، هيبنو تيسم).

يعود الفضل في نشر هذا النوع من المعالجة ، في باريس ، ابتـــداء من سنة ١٧٧٨ ، الى ف . آ . مسمير (١٧٣٤ ـ ١٨١٥) .

اعاد بيير جانيه ، في كتابـه « **الاستطبابات السيكولوجية** » المنشور سنة ١٩١٩ الى الاذهان ، تاريخ الايحاء والتنويم . وفيه نرى انها كانت قد برزت ،

---

1 - pulsions

2 - Psychose : ذهان . Névrose : عصاب

3 - Thérapeute

حوالي سنة ١٨٢٠، الفكرة القائلة بان التحولات التي يثيرها التنويم ليست بذات علاقة مع السائل المغناطيسي الحيواني السري ؛ وانهـا يمكن ان تفسر نفسانياً بـ « التأثير المعنوي » الذي يمتلكه المعالج ، وهو التأثـير الذي يبعث في نفس المريض « تغييراً معنوياً » [1] يكفي للتسبب بالشفاء . وعقب سنة ١٨٦٥ ترك التنويم المغناطيسي للدجالين . وبعـد عشرين سنة ، قام شاركو يجذب الانظار ويسلط انتباه رجال العلم على هذا الموضوع ، بعد ان كانوا حتى تاريخه ميالين الى عزو الظواهر المحدّث عنها الى مجرد التظاهر المتصنع .

لقد قام شاركو ، وهو طبيب امراض عصبية ، يتحرى عن حالة التنويم من خلال الاشارات والدلائل العضوية الواضحة وغير القابلة للشبهة : تحوّل في حالة العضلات والحركات الانعكاسية والحساسيات المختلفة . وادى الدرس الى تمييز ثلاث حالات عصبية امكن التعرف عليها بواسطة تنويم المهسترين وهي : حالة السبات المرضي (Léthargie) ، وحال التخشب أو التيبس (Catalepsie) ، ثم حالة المشي اثناء النوم أو الرّوبصه (Somnambulisme) . وفاز المؤلف بفضل وصفه هذه الحالات الثلاث ، فوزاً عظيماً أمام اكاديمية العلوم وذلك سنة ١٨٨٢ في ١٣ فبراير (شباط) . كما نالت عيادة السالبيتريير بعد ذلك شهرة فائقة، وعرف التنويم المغناطيسي انتشاراً واسعاً. في هذه الاثناء، كان استاذ من كلية الطب في نانسي، وهو هـ . برنهيم (١٨٣٧ – ١٩١٩) يدرس بدوره أيضاً التنويم ، فلم يجد فيه غير المفاعيل التي يحدثها الايحاء ، غير مفاعيل « التأثـير الناجم عن فكرة موحاة ومقبولة من قبل الدماغ». وفي هذا بعث لفكرة تركز كثيراً على « التغييرات المعنوية » . وحوالي سنة ١٨٩٠ قام برنهـيم ، الذي لم يكتشف في نانسي « الحالات الثلاث » المشهورة والـتي صارت تقليدية في السالبيتريير ، يؤكد بان هذه الحالات بالذات توحى للمرضى الذين ، بعد سماعهم

---

1 – Moral : معنوي او ادبي او اخلاقي

بها ، يتأثرون بها لا شعورياً ، فيتصرفون اثناء الفحوصات ، التصرف الذي توده هذه النظرية المقررة مسبقاً . « ان التـنويم في السالبيتريير ، هو اصطناعي ، مربى عليه » . وخرجت مدرسة السالبيتريير مهزومة في هــذا الصراع ، ثم زالت بزوال مؤسسها سنة ١٨٩٢. لكن مدرسة نانسي لم تعمر بعدها هي أيضاً. فعقب سنة ١٩٠٠ بقليل ، نامت نظرية التنويم نوماً عميقاً . إلا ان هذا الصراع الحماسي ، ساهم كثيراً في القبول بأهمية « الاستطبابات النفسانية » ، كما يسميها جانيه ، والتي تلاقي في ايامنا نجاحاً فائقاً .

٤ ـ التحليل النفسي

من المعروف منذ القدم ان اضطراباً في التصرف قد ينتج عن حادث مــا من حوادث الحياة ، كان قد اثار انفعالاً بالغاً .

لقد اوضح شاركو في دروسه التي اعطاها سنة ١٨٨٤ – ١٨٨٥ اوالية هذه الاضطرابات بمناسبة فحصه المرضى الذين كانوا مشلولين ، دون انيكون ممكناً معرفة السبب العضوي لهــذا الشلل (« الشلل الهستيري ») . وبدا ان سبب الشلل هذا لم يكن الحادث بذاته ، بـل ذكراه في نفس المريض . وكان لهذه اللمعة الطريفة البادية الوضوح اهمية لكونهـا فتحت آفاقــاً امام المعالجة النفسانية . ذلك لان الطبيب الذي لا يستطيع عمل شيء بشأن الحادث الذي مضى ، يمكنه احداث تغيير في الذكرى الماثلة لدى المريض .

قام بيار جانيه ، منذ بداية اعماله ، بتقديم الملاحظات التي تؤكد مفاهــيم معلمه . ونشرت امثال هذه الملاحظات في ما نشر له من اعمال بين سنة ١٨٨٦ وسنة ١٨٩٢ (وبالاخص في كتاب « **التلقائية النفسانية** » عام ١٨٨٩) ، ثم

تضاعفت هذه الملاحظات خلال السنوات اللاحقة . اخذ يمارس الـ « تحليل النفساني » للإضطرابات التي يلقاهـــا لدى مرضاه ، هادفاً الى تحقيق ما يسمى بـ «التطهير المعنوي» Désinfection morále «وذلك بفضل «الانظمة النفسانية » المكونة بفـعل ذكرى الحادث وبفعل الاضطرابات (الشلل وغيره) التي اقترنت بهذه الذكرى . وقد لاحظ ان المريض قـد لا يعي تماماً الذكرى المسببة للصدمة [1] ، ثم تكلم سنة ١٨٨٩ عـــن حالة « تحت وعي تحصل عن طريق التفكك النفساني». ونادى بان وضع المريض في حالة روبصة مقصودة هي الحالة التي تمكنه من سرد وقائــــع الحادث المسبب للاضطراب .

وهكذا سار في ابحاثه شوطاً بعيداً حتى لم يعد يرى فيها الا تأكيداً لما نشره بعنوان «دراسات حول الهستيريا »[2] في فيينا سنة ١٨٩٥ ، كل من ج . بروير و س . فرويد .

كان بين مرضى ج . بروير (١٨٤٢ – ١٩٢٥) ، وهو فيزيولوجي درس التنفس وحس التوازن ، شابة عمرها ٢١ سنة ، اعتنى بها وعالجها من سنة ١٨٨٠ الى ١٨٨٢ هذا في حين كان فرويد يوشك ان ينهي دراساته الطبية . كانت هذه الفتاة تشكو من اضطرابات هستيرية خطيرة : تيبّس ، فقدان الاحساس ، سعال عصبي ، عدم القدرة على الاكل والشرب ، اضطراب في الكلام ، الخ . وبعد ان لاحظ بروير انها في حقبات «غيبوباتها » كانت تردد بكثرة هائلة كلمات بدون معنى ، نوّمها واخذ يعيد عليها هذه الكلمات . عندها اخذت تقص اقاصيص حزينة عن فتاة صغيرة بجانب سرير والدها المريض .

---

1 – Traumatisant

2 – Studien über Hysterie .

سبق انظهرت اعراض المرض على الفتاةوهي بجانب والدها المريض تعتني به ، اثرت هذه الاقاصيص في نفس الفتاة تأثيراً حسناً وأوقفت اضطراباتها مؤقتاً ، ووصفتها هذه الفتاةنفسها «بالمعالجات الكلامية» بعملية « التعزيل » . وبذات الوقت زال عنها عارض استحالة الشرب نهائياً يوم اتيح لها ان تقص على بروير قصة حادثة صغيرة (كلب شخص تكرهه ، شرب امامها ، من كاس مـــاء) سببت لها قرفاً وغضباً لم تستطع التنفيس عنهما في ذلك الحين . وهكذا نتعرف في هذه الحالة على التأثير النازف (والحدث للصدمة) لذكرى تجربة انفعالية سالفة . وانار بروير جوانب القضية ووجد منهجاً للعلاج (قصص يُدْفع اليها تحت تأثير النوم) قبل شاركو وجانيه . لكن تطبيق التنويم بدا شاقاً ، فقد اصبحت الفتاة عاشقة لبروير نفسه (رد فعل يعرف التحليل النفساني تفسيره اليوم بواسطة مفهوم التحول) ، وتضايق هذا كثيراً ، ففضل ترك هذا الحقل الدرامي بعد نشر « دراسات حول الهستريا » .

تولى س . فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الذي كان يعمل منذ عدة سنوات مع بروير ، المهمة هذه وكرس لها حياته ، واكتسب عن طريقها شهرة لم تتوفر ، على ما يبدو ، لاحد حتى الان في الاعمال النفسانية . فبعد نيله الدكتوراه ، تتلمذ فرويد ، في سنة ١٨٨٥ - ١٨٨٦ على يده « شاركو » الذي كان قد اشار في السنة التي سبقت الى اهمية الذكريات الناجمة عن الصدمات الفيزيائية [١] في انواع الشلل الهستيري ، والذي اتيحت له الفرصة لكي يذكر امـــام فرويد أثر العوامل التناسلية في الاضطرابات الهستيرية . ويعترف فرويد ، حاله في ذلك كحال بروير ، بأنه تأثر كثيراً بشاركو عندمـــا نشرا سنة ١٨٩٥ تفسيراً لحالة الفتاة التي اتينا على ذكرها . الا انه ينكر ان يكون مديناً بشيء لجانيه ، الذي اخذ بدوره ، على الصعيد النفساني ، مفهوم الصدمة الذي نادى به شاركو

1– Traumatismes Physiques .

فطوره من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٩٢ . في هذه الاثناء كان فرويد ، في فيينا ، يعالج مرضاه بالتنويم وبالايحاء . ثم عاد الى فرنسا في سنة ١٨٨٩ ، لكنه ذهب هذه المرة الى نانسي يزور خصم شاركو ، برنهيم . وتعلم منه خصوصاً كون المرضى لا يفقدون تماماً ذكريات الاعمال التي قاموا بها اثناء النوم ، وانه بامكانهم عقب اليقظة ، ان يقصوا قصتها ، بعد الالحاح الشديد عليهم . انتفع فرويد من هذه الملاحظة عندما عانى صعوبات في تطبيق التنويم لمعالجة مرضاه . وكذلك الحال في ذكرى الحدث الصادم ؛ فهذا الحدث ، لا ينسى تماماً وبالامكان احياؤه في ذهن المريض بمضاعفة الاسئلة . انما نظراً لما يقترن به هذا المنهج من صعوبة فقد تُرك وتخلي عنه ، لكنه لعب دوراً مهماً في تطوير نظريات التحليل النفساني ، وذلك بلفته انتباه فرويد الى « المقاومة » التي يتوجب عليه قهرها عن طريق الاسئلة المتكررة ، للحصول على سرد الحادثة التي هي في اساس الاضطرابات . اذن ما هي العوائق التي تمنع المريض من الكلام؟ انطلاقاً من هذه المشكلة ، طور فرويد نظرياته الاولى في المؤلفات التالية : « تأويل الاحلام [١] » (١٩٠٠) ، « علم النفس المرضي للحياة اليومية » [٢] (١٩٠١) ، « ثلاث رسائل في نظرية الجنس » [٣] (١٩٠٥) ، « النكات وعلاقتها باللاوعي » [٤] (١٩٠٥) . ولقد عرضها هو بنفسه في خمس محاضرات ، ألقاها في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ في الولايات المتحدة في جامعة كلارك ، حيث كان ضيف ج . ستانلي هل . وكان برفقته تلاميذه : يونغ من زوريخ ، فرنزي من بودابست ، وجونز من لندن . وكانت هذه أول شهادة اعتبار تمنح للنظرية الجديدة من قبل المحيط العلمي .

---

1 – Die Traumdeutung .

2 – Zur psychopathologie des Alltagslebens.

3 – Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie .

4 – Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten .

كما بذل فرويد جهده لكي يعرض افكاره بشكل واضح مقبول؛ فتوفق أكثر بكثير مما فعل بعض شرّاحه فيما بعد .

أوضح فرويد عام ١٩٠٩ افكاره باجراء المقارنة التالية : لنفترض انه – كما قال – اندسّ بين المستمعين الصاغين شخص ، استطاع بضحكاته ، وثرثراته ، ان يمنعني من متابعة محاضرتي . فقد يقوم بعض الحضور الشديدي الساعد برميه خارج القاعة ، ثم لكي يحولوا بينه وبين العودة ، قد يوقفون حراساً على الباب . وهكذا فقد تندس في ذهننا فكرة أو رغبة ، لا نستطيع لاسباب اخلاقية القبول بها . يحدث عند ذلك صراع ، فتكبت هذه الفكرة وهذه الرغبة ، وتطردا خارج نطاق افكارنا الواعية؛ انهما تستمران في الوجود في اللاوعي ، لكن حاجزاً يمنعها من العودة الى نطاق الوعي . هذا الحاجز يشبه المقاومة التي يتذرع بها المريض بوجه الطبيب الذي ، بواسطة الاسئلة ، يحاول الوصول الى الحادث أي منطلق الاعراض المرضية . ثم استعاد فرويد هذا التشبيه . فالمستمع المطرود من القاعة يبقى موجوداً رغم الطرد ؛ فهو يطرق الباب ، ويصرخ ويضج بحيث يزعج القاعة ومن فيها اكثر من الاول . عندها يمكن أن يتدخل رئيس الجامعة كحكم ؛ فيقابل المشاغب ، وقد يسمح له بالدخول إذا تعهد بعدم ازعاج الحضور . وكذلك حال الفكرة المكبوتة في اللاوعي ، فهي موجودة وتستمر في ازعاج سلوك المريض باشارات أو تظهرات مقنّعة ، رمزية ، ليست سوى الاعراض التي يعاني منها . فعلى الطبيب ان يعرف ، كما فعل رئيس الجامعة ، كيف يذهب لمقابلة المشاغب خارج دائرة الوعي ليعود به الى الداخل . وحتى لو حصلت بعد ذلك اضطرابات علنية مكشوفة فانها تنتهي ، بفضل الطبيب ، نهاية حسنة : فقد يعترف المريض بانه كان على خطأ حين كبت الفكرة فيقبلها كما هي ، وقد يقضي عليها بشكل فعال ونهائي ، أو يحولها الى فكرة مقبولة ، يُساميها [يرفعها بعملية الإسماء] . ولكي يعثر الطبيب على الفكرة المكبوتة ، يتوجب عليه

قهر المقاومة الساهرة على باب الدائرة الواعية . وقد يلجأ ، للوصول الى ذلك ، الى تأويل ما يقوله المريض تاويلاً حاذقاً عندما يطلب اليه أن يعبر بحرية عن افكاره ؛ وقد يؤول له أحلامه ، وأعماله البسيطة « غير الارادية » التي يقوم بها في حياته اليومية وحتى نكاته . وبالواقع ، فان لا شيء من هذه الامور يكون اعتباطياً عرضياً . فالقضية تتعلق بتمظهرات مقنعة ، بافكار « بديلة » عن الافكار المكبوتة التي يتوجب استشفافها . وقد حلت هذه التقنيات الجديدة محل تنويم برويير ، ومحل الاستجواب الملح الموروث عن برنهيم . فهي توصل المحلل النفساني ، بانتظام مدهش ، الى تجارب انفعالية ذات علاقة بالجنس عند الاطفال ؛ تلك الجنسية إذن ، هي التي تشكل المنبع الرئيسي للاضطرابات اللاحقة .

غب سنة ١٩٠٩ ، تطورت افكار فرويد . وكذلك افكار اتباعه أيضاً ، انما في اتجاهات مختلفة احياناً . من هنا كان منطلق تعدّد في النظريات ، وسلسلة انشقاقات يتطلب بلا شك سردها التاريخي من قبل المتخصص كثيراً من الوقت ومن الصفحات . فلنكتف بالتذكير بالتعارض الحاصل بين غرائز الحياة وغرائز الموت (١٩٢٠) ؛ وبالتمييز في مجال النفسية ، بين الـ « هو » والـ « أنا » والـ « انا الاعلى » (١٩٢٣) . لقد ساعد النمو الهائل للتحليل النفساني في البلاد ذات اللغة الانكليزية ، ثم ظهوره في البلاد « اللاتينية » (في فرنسا ، حوالي سنة ١٩٢٦) على تعدد الاتجاهات التي يحاول البعض منها ، في الوقت الحاضر ، ان يصل الى لا وعي اعمق ، الى ماض اكثر ايغالاً في البعد ؛ في حين يشير البعض الاخر الى اهمية الصراعات القائمة حالياً مع المحيط ؛ واخيراً ، يرتكز بعض ثالث على الهوهوية [التوحّد التشابه] الملحوظة في او اليات الدفاع لدى الأنا وهو يصارع العالم الداخلي والعالم الخارجي .

٥ ـ المنهج العيادي وعلم النفس العيادي

يعتبر ريبو وجانيه أن ملاحظة مفاعيل المرض وسيلة لمعرفة التنظيم السوي للنفسية وذلك بتحليل أكثر سيروراتها تعقيداً ، تحليلاً متصاعداً . وكذلك استعمل التحليل النفسي أيضاً ، وهو اسلوب علاجي ، كأساس لنظريات عن الشخصية السوية .

بالاضافة الى هذه المنجزات المتعلقة بهذا او ذاك من تناول الامور ، فقد ادخل علم النفس المرضي اتجاهاً عاماً الى مجال علم النفس السوي فأغناه بمعطيات تناولت الاشخاص الاسوياء كما تناولت المرضى ؛ وهي بدون نزاع ، مأخوذة عن موقف الطبيب الذي يتوجب عليه التزامه قرب سرير المريض . ذلك هو الاتجاه [1] ، الـ « منهج » العيادي (الاكلينيكي) (ل . ويتمر ، ١٨٩٦ ؛ د . لاغاش ، ١٩٤٥) .

هذا الاسلوب ثبّت نفسه ، كما هو الحال دائماً بالمناهج أو المعتقدات الجديدة ، أولاً على انه رد فعل ، احتجاج . فهو رد فعل ضد التجارب المخبرية ، كالتي اجراها فكنر أو فوندت ، وذلك لانها بالضرورة مصطنعة ، ومجزأة ، وتغفل التعقيد الدينامي الناتج عن الاحداث العيانيّة [2] . كما انه أيضاً رد فعل على الإحصاء لدى غالتون وضد التكديس المتسرع للملاحظات السطحية هذا في حين يتوجب على العكس من ذلك ، وهنا يكمن الاتجاه العيادي ، الاستمرار لمدة طويلة وبشكل معمق في ملاحظة الافراد المعنيين وهم يصارعون مشاكلهم ، ثم معرفة ظروف حياتهم برمتها معرفة تامة ما أمكن ، بحيث يتيسر تأويل كل حادث في ضوء الوقائع الاخرى ، نظراً لأن جميعها تشكل كلاً دينامياً لا يمكن أن نبسطه بدون أن نبتره . ذلك هو موقف الطبيب الممارس (Praticien) الذي

---

١ – اتجاه Attitude .

٢ – عياني او حسي Concret .

يتوجب عليه على صعيد عياني أن يعالج أو أن يرشد ، وهو دور تجب الاشارة الى خصوبته العميمة ويناقضه عادة موقف رجل المختبر المنقطع عن عالم الواقع .

هكذا ، على أي حال، قد يعرُض «طبيب عيادي» (Clinicien) متشبث وعدواني نوعاً ما – هذا إذا وجد – إذا شاء تقديم مبادئه ، وقـــد يستطيع التدليل عليها وتزيينها بالكثير من الخصائص المأخوذة عـــن علماء النفس الذين تكلمنا عنهم في هذا الفصل : فالصفات الجوهرية للمنهج العيادي مأخوذة عن علم النفس المرضي .

أن الحذر من المناهج الاحصائية نجده عنـــد ريبو حيث يقول : « وكَم هو الاعتقاد بأن استعمال الوسائل الرياضية يؤدي بنا الى يقين رياضي » كما نجده أيضاً عند جانيه إذ قال : « ان الارقام هي التي عطّلت واضاعت منهج الروائز ». وبعد ان أبدى بينيه نفس الرأي بقوله : « لا توصل الاحصاءات إلا إلى الزهيد » كان أن تطور رأيه خلال بضع سنوات تطوراً مهماً بحيث يمكن تتبعه خطوة خطوة في مؤلفاته ابتداء من سنة ١٩٠٥ (... « ان القيمة الوسطية تمثل القيمة الاثبت أو القيمة المثالية » . وهذا ما قاله بلهجة جديرة بِـ كيتيلي الذي نقل عنه بينه بعض الافكار عن التوزيعات المتماثلة).

واهتمام جانيه بالدراسة المعمّقة لـ « حالات » فردية يعطي ابحاثه حيويـة بالغة . فقد آوى بعض المرضى في غرفة صغيرة ملاصقة لمكتبه في السالبيتريير ، وذلك تسهيلاً وتيسيراً للعمل ، ثم أخذ يراقبهم فيها طيلة سنوات . ووسع بينيه الطريقة التي أشملها نطاق الانسان السوي ثم وضع كتابه « الدراسة التجريبية للذكاء » (١٩٠٣) استناداً إلى تجارب مستديمة اجراها على ابنتيه ، ارماند وهنرييت ، اللتين احتلتا بشجاعة مكانهما في الابحاث إلى جانب ليزا ، وماريا ، ومادلين ، وايرين ، هؤلاء المريضات النموذجيات اللواتي يجدهن قارىء مؤلفات

جانبه ، في هذا أو ذاك من كتبه ، كبطلات مشهورات وأليفات .

بيد أنه كان لعالم نفس اميركي ، ليتنير ويتمير ، الفضل في أنــه أول من استعمل التعبيرين : « علم نفس عيادي » و « منهج عيادي في علم النفس » . فقد ابدى ، مثل كاتيل ، اهتماماً ظاهراً بالتطبيقات العملية الممكنة للتعالــيم التي تلقاها كل منهما عن فوندت . وفي حين وجه كاتيل بشكل حازم ، تحت تأثير غالتون ، التطبيقات الصناعية في الاتجاه الاحصائي التجريبي (المسمى غالبـاً « علم النفس القياسي »)، فقد اهتم ويتمير بدراسة معمقة للحالات الفردية للاطفال الصعبين أو اللاأسوياء .

وكان قـــد اثار الاهتمام ، في الولايات المتحدة ، قبل هذا بخمسين سنة ، الطبيب الفرنسي أ . سيغين [1] (١٨١٢ - ١٨٨٠) . وكان هـــذا تلميذاً لـ ايتارد [2] الذي تأتى له أن يعالج « حالة » مشهورة ، وهي حالة « متوحش الا أفيرون » [3] ، وهو صبي مسكين ، شب في حالة توحش ، فتخلف تخلفــاً فكرياً هائلاً . وكانت النتائج التي حصل عليها ايتارد ضحلة تقريباً ، ولكنهـا كانت كافية لتوحي لتلميذه سيغين بالفكرة القائلة بان البلادة لم تكن ناجمة بسبب نقص (خلل) أو تشويه في الدمــاغ ، بل بسبب توقف النمو والتطور ، وأن تدرب الحواس يمكننا من التغلب عليها (وهنا نجد تأثير كوندياك) . وبمساعدة من اسكيرول [4] ، فتح سيغين (على نفقته) ، في سنة ١٨٣٧ ، مدرسة للبلداء ، في مأوى بيسيتر [5] ، وفي سنة ١٨٤٤ نوهت اكاديمية العلوم باعماله . وفي سنة

---

1 – Séguin .
2 – Itard .
3 – Aveyron .
4 – Esquirol .
5 – Bicêtre .

١٨٧٤ قرأ طبيب اميركي، هو ويلبور، في « جورنال دي شمبر» «ريبورتاجاً» استطلاعاً عن مدرسة سيغين، واستحصل على الكتاب الذي نشره هـذا سنة ١٨٤٦ : « العلاج الاخلاقي، حفظ صحة وتربية البلداء وغيرهم من الاولاد المتخلفين » . وعندما اضطر سيغين، سنة ١٨٥٠ ، للهجرة إلى الولايات المتحدة لاسباب سياسية (كرهه للويس نابليون بونابرت) ، امكنه زيارة ومساعدة ثلاث مدارس نشأت بناء على اعماله : سوث بوسطن ، بار (ماساشوستش) ، الباني . وشارك حتى آخر حياته في نشاط عدة مدارس أو مؤسسات للمتخلفين (سيراكوس، كونكتيكوت ، أو هيو) ، وتولى بنفسه ادارة احداهـا في بنسلفانيا ، أي في المكان ذاته الذي سيؤسس فيه ويتمير ، فيما بعد (بعد عدة عشرات السنين) « عيادته النفسانية » . واخذ ويتمير ، بعد أن خلف كاتيل في جامعة بنسلفانيا، يعلم علم نفس الولد سنة ١٨٩٤ – ١٨٩٥. في هذه المناسبة، عرض عليه مدرس في مارس (اذار) سنة ١٨٩٦ ، أن يدرس حالة طفل عاجز عن تعلم الاملاء . وسرعان ما رأى ويتمير الفائدة التي يمكن أن يؤديها تطبيق علم النفس على قضايا من هذا النوع، فأسس في ذات السنة ١٨٩٦ ، مؤسسة دعاها « سيكولوجيكل كلينيك » (العيادة النفسانية) وخصصها لـ « اعادة تأهيل المتأخرين وغير الاسوياء » . وفي نفس السنة ذاتها ، ١٨٩٦ أيضاً ، عرض أمام الجمعية النفسانية الاميركية الناحية النظرية من العمل التطبيقي الذي قام به . ولاول مرة استعمل التعبير « المنهج العيادي في علم النفس » وعرّفه بانه منهج في البحث يقوم على استعمال نتائج فحص مرضى عديدين ، ودرسهم الواحد تلو الاخر ، لاجل استخلاص مبادىء عامـة توحي بها ملاحظة كفاءاتهم وقصورهم (نقائصهم) . فـ « العيادات النفسانية » يجب أن تكون المكان الذي يطبق فيه هذا المنهج في البحث ، والمكان الذي يتدرب فيه علماء نفسانيون على تطبيق علم النفس في مجال « الصحة المهنية التربوية ، والإصلاحية ، وفي مجال التوجيـه الصناعي والاجتماعي » . وأكد أحد الشهود أن رد الفعل الوحيد الذي احدثه

ويتمير هو أنه حمل بعض أقدم الاعضاء في الجمعية على رفع حواجبهم رفعاً طفيفاً. واستمرت عيادة ويتمير مع ذلك كله في العمل حتى ايامنا . وفي سنة ١٩٠٨ أسس صحيفة أسماها «العيادة النفسانية» [1]، خصصها لنشاطه الذي هو « تلافي ومعالجة القصور والشذوذ الذهني » ، حسب ما ذكر في عددهـا الاول . لكن تأثير ويتمير الذي ظل أميناً ـ الى حد كبير ، حتى في الفحوصات الفردية ، للاساليب المخبرية المقتبسة عن فوندت – يبقى تأثيراً طفيفاً .

وفي سنة ١٩٠٩، افتتحت في شيكاغو مؤسسة خاصة بالمجرمين الصغار دعيت بـ « معهد الجنوح السيكوباتي» [2] ، وتراوح اختيار المدير بين مرشحين : عالم نفساني تجريبي وإحصائي ، وآخر هو طبيب عقلي (نفساني) . واختير لذلك الطبيب العقلي هـ . هيلي الذي كان تلميذ العـالم النفساني الاميركي وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩٠١) والذي تأثر بالعلم النفساني المرضي الفرنسي . كما تأثر هيلي ذاته جداً بفرويد (الذي كان مدعواً، كما نذكر ، بصورة رسمية من قبل ستانلي هلّ الى الولايات المتحدة ، في سنة ١٩٠٩ ذاتها) . وبواسطة هيـــلي ستصبح السيكولوجيا العيادية سيكولوجيا دينامية قريبة من الطب العقلي . وبعكس ما كان عليه ويتمير فقد أحدث هيلي تأثـيراً كبيراً في التطور اللاحق لعلم النفس العيادي .

عقب ذلك ، سوف يشرع بالكلام عـــن « علم النفس العيادي » ، بالمعنى الواسع للكلمة ، في كل مرة سيحاول فيها عالم نفساني ما مساعدة مريض معين مساعدة عيانية محسّة . فقد كان هؤلاء المرضى يأتون لاستشارة العالم النفساني لانهم يشعرون بالمصاعب : فهم أولاد معاقون في نموهم العقلي ؛ تلاميذ يجدون

---

1 – The Psychological Clinic .

2 – The Juvenile Psychopathic Institute.

صعوبات مدرسية غير سوية ؛ شباب أو راشدون يجدون صعوبات في تعلّم أو إعادة تعلم مهنة ؛ أحداث جانحون ؛ عصابيون . هذه المصاعب الخاصة كانت تصنف الكثير منهم ، بشكل أو بآخر ، بين « غير الاسوياء » . من هنا كان الاتجاه الى الخلط احياناً بين علم النفس العيادي وعلم النفس الطبي . وفي الواقع، فحق الانسان السوي له أيضاً مشاكله التي يمكن أن تهم العالم النفساني العيادي. انما حدث أن هذا لم يعد يسمى كذلك : ففي فرنسا سوف يسمونـــه مستشار التوجيه المدرسي والمهني (تحت تأثير ه . بيرون تأسس معهد قومي للتوجيـه المهني سنة ١٩٢٨ ، وانشيء دبلوم دولة من أجل مستشار التوجيه المدرسي والمهني سنة ١٩٤٤) ، وعالم نفساني مدرسي (ابتداء من سنة ١٩٤٥ . انظر الفصل التالي) ، بحيث ينحصر مجال علم النفس العيادي بـ « غـــير الاسوياء » واحياناً – وانما على نطاق اضيق – باولئك الذين من بين هؤلاء الاسوياء يذهبون لاستشارة الطبيب العقلي الذي أصبح العالم النفساني العيادي مساعده الاعتيادي.

فاذا كان تحديد مجال « علم النفس العيادي » مبهماً إلى حد ما ، فكذلك هي الحال أيضاً بالنسبة لمنهجه . فالمحتوى الاساسي لتعبير « المنهج العيادي في علم النفس »، هذا المحتوى الذي قصد اليه ويتميز في السابق، يتوافق مع فحص الحالات الفردية (فحصاً يفترض أن يكون عميقاً) . ان ضرورة معرفة حيـاة المريض ، كل ما أمكن ذلك ، بكاملها ، ظهرت خلال العقد الاول من هـــذا القرن ، وبالاخص ، على مـــا يبدو ، تحت تأثير التحليل النفسي . لكن هذا التأثير ليس بالوحيد الذي يتعرض له العالم النفساني العيادي ، إذ هناك تأثير اساليب اخرى كاسلوب الروائز العقلية الذي عرف ازدهاراً خاصاً في الولايات المتحدة حيث كان يطبق أيضاً بصورة واسعة جداً « سلم الذكاء » ، هذا السلم الذي أوجده بينيه وسيمون . واللذان ادخلاه الى الولايات المتحدة (غودارد وهيلين ، كل على حدة ، سنة ١٩١٠) كانا كلاهمـــا من الاطباء العياديين . ونشر هـــذا الاخـــير في سنة ١٩٢٧ ، رغم تأثره بعلم النفس المرضي الفرنسي

وبفرويد ، كتاباً هو : «الوجيز في الروائز الفرديةوالريازة »[1] وذلك بمعاونة برونر . حينئذ كان تاريخ منهج علم النفس العيـادي واقعاً تحت سيطرة اتجاهين : اتجـــاه البحث التاريخي الشامل ، المؤدي الى اقامـة جدول بالحالة المدروسة والى تنبوء متنوعين ؛ تيار البحث عن طريق الروائز ، ضمـــن ظروف موحدة ، وهذا ما يؤدى الى وضع « جانبيـات نفسية » بروفيل ، او الى تنبؤات ذات شكل رقمي. وعندما كان يجري عندئذ الكلام عن «المنهج العيادي » كان ما يتبادر الى الذهن هو الاتجاه الاول ، حيث كان يجري ربطه احياناً بـ « التراث الدينـــامي » الذي خلفه ريبو وجانيه وفرويد ؛ هذا في حين كان التيار الثاني يعود « الى الارث النفسقياسي » الذي نادى بـه فوندت وغالتون .

يعتبر انتشار المناهج « الاسقاطية » ، انتشاراً واسعاً ، ابتداء من سنة ١٩٣٠ مثلاً على رد الفعل بوجه التراث النفسقياسي (السيكومتري) . ومفاد هذه الطرائق أن يطلب الى المريض تأويل بقعات من حبر (رورشاخ ، ١٩٢١) ، أو مشاهد مبهمة غامضة (مورّاي ، ١٩٢٥) ، الخ ... ومن خلال التـأويل حسب هذا المنوال أو ذاك ، يمكن اكتشاف المحتوى العميق لشخصيته . وكان استعمال هذه المناهج يتم في الغالب في اطار نظري مأخوذ عن التحليل النفسي.

يبدو أن هذين الاتجاهين ينطبقان على نوعين من العقلية ، أو على نموذجين من الاهتمامات المختلفة ، والعلماء النفسانيون الذين كانوا يتعصبون لاحدهما قلما كانوا، بوجه عام ، يرتضون الآخر .

بيد ان هناك اعتراف ،اخذ يعم رويداً رويداً ،يقرّ بأن على منهج الممارس لعلم النفس واجب المشاركة في كلا الاتجاهين. ثم أن هناك محالاوت دمجية تركيبية على الصعيدين النظري والتقني ، اخذت أيضاً تظهر للعيان .

---

1 – Manual of Individual Tests and Testing .

ان أحد مظاهر التطور المهمة جداً هو المظهر الذي يهتم بعلاقات الطريقة (المنهج) الاحصائية بالطريقة العيادية . فهذه تتحدد بأنها ، كما رأينا ، نقيض تلك. وفوز بينيه قد تأتى الى حد بعيد عن عملية الدمج التي توصل الى تحقيقها. إلا انه يبدوان تحسين الطرائق الاحصائية يمكّن اليوم من التطلع الى درس مشاكل لم يكن تعقيدها ليدرك الا بحدس من الطبيب العيادي . وهكذا فقد أمكن الوصول عن طريق الاساليب الاحصائية إلى تنظيم جدول عيادي بمجموع الاعراض المميزة لمرض عقلي . وترغم الحاجة الى مراقبة النتائج الحاصلة ، أشد الاطباء العياديين تدقيقاً الى اللجوء إلى الاحصاءات . بهذا الصدد أصدرت « المجلة السيكولوجية العيادية » في الولايات المتحدة ، عام ١٩٥٠ ، « أعمال ندوة دراسات احصائية لخدمة الطبيب العيادي » [1] .

1 – Symposium on statistics for the Clinician .

٥

سيكولوجيا الطفل

١ – خصائص عامـــة .

٢ – المناهـــج .

٣ – من وصف الاحداث الى النظريات التفسيرية.

٤ – بعض النظريات المتشابهة في نمو الطفل .

١ ـ خصائص عامة

منذ القرن السابع عشر ومفهومان فلسفيان متعارضان يتصادمان بصدد النمو . فالعقلانية الكلاسيكية ترى أن النمو يعود إلى التمظهر الحتمي ل «أفكار فطرية » تكون خاصة بالانسان وحده . على العكس من هذا ، ترى النظرية التجريبية (Empirisme) أن النمو هو وليد التجربة انطلاقاً من « صفحة بيضاء » . أما الفلسفة التطورية التي نادى بها هنري سبنسر (الذي نشر أولا كتابه « مبادىء علم النفس » سنة ١٨٥٥ ، ثم عاد فأكمله بين سنتي ١٨٧٠ – ١٨٧٢) فتعتبر ان الاسس العقلية عند الراشد هي فطرية لدى الفرد لكن النوع الانساني لم يكتسبها ، عبر الالاف من السنين ، إلا بالتجربة ذات المكاسب القابلة للانتقال .

اعتقد هايكل (Haeckel) ،في تلك الحقبة ذاتها تقريباً ، اننا نرى مراجعة (إعادة) لهذا التطور للنوع في الاشكال المتتالية التي تتخذها النطفة الانسانية خلال نموها . بل إن آخرين يمددون هذا التشابه المذكور حتى حقبة نمو الطفل . وهذا بحيث تصبح دراسة هذا النمو وسيلة ملاحظة لم تكن مؤملة لدراسة التطور .

بهذا نرى أية أهمية سيتخذها علم نفس الولد . والمدارس السيكولوجية التي تكلمنا عنها قد اهتمت ، ومنذ ظهورها تقريباً ، بهذه السيكولوجيا ، على انها مشكلة رئيسية : فقد عالجها كراسنوغورسكي (Krasnogorski) ، تلميذ بافلوف ، منذ عام ١٩٠٧ ، وواطسن ، مؤسس السلوكية ، منذ سنة ١٩١٩ ، وكوفكا ، الجشطلتاوي (عالم نفس الشكل) ، منذ ١٩٢١ .

من هنا نفهم أيضاً أن علم نفس الطفل قـد أدى إلى أشهر الدراسات حول علم النفس برمته : قياس الذكاء من قبل بيـنيه (١٩٠٥ ، ١٩٠٨) ، والنظرية الجنسية عند المرضى العصبين من قبل فرويد (١٩٠٥) .

سنرى أيضاً كيف أنها أثارت مجالات ومناقشات تتجاوز ، بصورة جلية أو مضمرة ، والى حد بعيد جداً نطاقها الخاص بها .

٢ ـ المناهج

إن ابسط وسيلة لتحديد الترتيب الذي تتم المكتسبات وفقـاً له ، خلال النمو ، هو ما تمكننا منه ملاحظة نفس الاشخاص خلال كل فترة هـذا النمو . فطبيعة قضية علم نفس الطفل ذاتها ، توجه هذا العلم النفسي نحـو استعمال « المنهج العيادي الاكلينيكي» الذي أشرنا اليه في الفصل السابق. وسيكون هذا الاتجاه مميزاً بمقدار ما يجد العالم النفسي في أشخاص اولاده هو ، مواضيع يسهل عليه الاتصال بها يومياً وخلال عدة سنوات . يتكون أول منهج يتبعه العالم النفسي من اجراء الدرس على اولاده هو بالذات وذلك بشكل محايـد وموضوعي ما أمكن ، خلال السنوات الأولى من نموهم ، على أن تجري إبانهـا محاولة لعدم اهمال أي من المؤثرات التي تطالهم ولا أي من ردود الفعل لديهم . من ثم تجدر الاشارة الى أن القسم الاوفر من المسافة الفاصلة بين المولود الجديـد والراشد يجري اجتيازها خلال هذه السنوات الاولى .

إذا لاحظنا أن مؤلفات سبنسر وداروِن وهايكل قد صدرت ما بين ١٨٥٥ و١٨٧٠ ، فاننا لن نندهش اذا اتضح لنا أن الاهتمام المهني الذي صار يبديه العالم النفسي تجاه اولاده قد بدا أكثر ما بدا في المنشورات الصادرة في البضع سنوات اللاحقة لهذا التاريخ .

ومع ذلك ، فهناك رائد يستحق أن يشار اليه بالبـنان ، ذلك هو ف . تيدمان ، وهو فيلسوف المـاني نشر منـذ سنة ١٧٨٧ في (Hessische

(Beitràge) ملاحظات منتظمة قام بها ابتداء من سنة ١٨٧١ على ولده فردريك . تستشف اهتمامات المؤلف الفلسفية ، فيما يتعلق بالخلاف القديم بين العقلانية والتجريبية ، في عمله هذا . بيد أن الملاحظات ذاتها أجريت لديه مع ابتغاء للموضوعية وذلك على الموضوعات ذاتها التي سنجدها بصورة منتظمة ، فيما بعد ، عند علماء نفس الطفولة .

في سنة ١٨٧٦ نشرت « المجلة الفلسفية » التي اسسها ريبو انتاجها الاول . افتتحت بمقال لتين عن « اكتساب الكلام عند الاولاد وفي الجنس البشري » . يكفي هذا العنوان وحده للدلالة على تأثير النظريات التطورية ، وعلى مركز الشرف الذي منح لهذا المقال ، والاهتمام الذي أثارته هذه النظريات . وكانت الملاحظات « المكتوبة في اللحظة ذاتها وفي حقل العمل وتدريجياً » تدور حول ابنة الكاتب . ثم توقفت هذه الملاحظات ، وذلك « بتأثير نوازل سنة ١٨٧٠ المؤلمة » .

منذ سنة ١٨٧٧ ، تُرجم مقال تين هذا في مجلة « الفكر » (Mind) ، تلك التي نشرت في ذات السنة : « مختصر لسيرة طفل » لداروين ذاته . وفيه يقول انه اعاد البحث بمذكرات دونت في ذات الحقبة التي جرت فيها الاحداث الملحوظة ، منذ قبل سبع وثلاثين سنة ، وانه طبقها على أحد اولاده ، وأنه أورد المهم منها في كتابه المنشور سنة ١٨٧٢ عن « **التعبير عن الانفعالات لدى الانسان والحيوانات** » . لكنه رأى انه من المفيد ان ينشر بعض المعطيات الاخرى ليقابلها بما وصل اليه تين وبالملاحظات الجديدة «التي ستطبق» منذ الان فصاعداً ، بكل تأكيد » .

وبالواقع فقد صدر سنة ١٨٨١ مؤلَّف بالملاحظات التي توصل اليها عالم فيزيولوجي من يينا هو و . برير بعنوان : « نفس الاطفال » [1] . وكان قد قدم سنة ١٨٨٠ موجزاً لمؤلفه الذي « دفع بالكثيرين الى القيام بمراقبات

---

1 - Die Seele des Kindes . W . Preyer

وملاحظات جديدة» . ان أسلوب بريير دقيق جداً : فقد راقب ابنه « كل يوم ، على ثلاث دفعات على الأقل ، صبحاً وظهراً ومساء .. » . وحاول « أن يحميه ما أمكن ، من أنواع الترويض (التقويم) المعتادة » . وما تزال الملاحظات التي ذكرها تستعمل حتى أيامنا هذه .

ثم تتالت بعدها الدراسات ، ولن نقوم هنا بعمل افضل من تعدادهـــا ولو بصورة غير كامـــلة . في سنة ١٨٩٠ ، ظهرت في الولايات المتحدة ، في مجلة « العلم »، الملاحظات التي دونها بالدوين ،وفي فرنسا ظهرت في« المجلة الفلسفية » أولى ملاحظات بينيه على ابنتيه . وفي سنة ١٨٩٥ نشر «بالدوين »كتابه « النمو العقلي عند الطفل والعرق » ، ونشر بينيه في سنة ١٩٠٣ : « دراسة تجريبيـــية للذكاء » . وغبّ منشورات شِنّ (Shinn) سنة ١٨٩٣ ومور (More) سنة ١٨٩٦ وماجور سنة ١٩٠٦ ، ظهرت في سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ الملاحظات التي قام بها وحققها السيكولوجي الالماني شترن مع زوجته على أولادهما الثلاثة . وهذه أيضاً ، قد استعملت فيما بعد كثيراً على اعتبار انها ملاحظات دقيقة، هذا بصرف النظر عن تلك النظرية المثيرة للكثير من الجدل التي نادى بها المؤلفان وهي « الشخصانية » (Personnalisme) . وتعمم هذا الاهتمام بالموضوعية في ملاحظة الأطفال . فنجده مثلاً ، في ملاحظات ب . غييوم عن ابنه وابنته ، التي نشرها سنة ١٩٢٥ تحت عنوان : « التقليد عند الطفل» ،أو في ملاحظات بياجيه عن اولاده الثلاثة خلال عاميهم الاولين ، والتي اتاحت له فرصة دراسة « ولادة الذكاء عند الطفل » (١٩٣٦) و « بناء الواقع عند الطفل» (١٩٣٧).

منذ بداية سلسلة الاعمال هذه ، انتبه المؤلفون الى وجود فروقات كبيرة ، بين طفل وآخر ، في نسق (وتيرة) النمو . فاشار تيدمان وتين وداروين وبريير الى هذا الحادث ، واحياناً كانوا يلمحون بتواضع ابوي مؤثر الى أن نمو ولدهم « كان طبيعياً ، لا مبكراً ولا متخلفاً » (تين) ، وانه « لم يكن سريعاً جداً ولا بطيئاً جداً » (بريير) . وكان تواضع الآباء هذا يسهل كثيراً — وهذا مما

ينبغي الاقرار به – عمل السيكولوجي . فهـذا كان يستطيع بالواقع ، ونظراً لعادية ولده ، أن يعتبر ملاحظاته نموذجية فيستعملها ليتحقق من قيمة هـذه أو تلك من النظريات العامة . ولم يلبث أن حث هذا الاتجاه الخطى نحو الاكثر من الدقة . فحددت ظروف الملاحظة بدقة حتى اتاح التحديد جمع نتائـــج قابلة للمقارنة . كما أتاحت الاساليب الاحصائية ، وهي التي كانت هنا بسيطة جـداً بشكل عام ، الوصول الى مكتسب معين (سواء امكانية تنضيد مكعبات ، أو قول بابا ، أو التعرف على الذات في المرآة ، أو أي شيء آخر) ، هو مثـــلا تحديد المعدل المئوي للاولاد ، من سنّ معين ، الذين وصلوا إلى هذا المكتسب ، أو السن الوسطي الذي تحققَ عنده هذا المكتسب ،أو التشتت في اعمار الأطفال الذين توصلوا اليه .

وسميت الملاحظات الجارية على مجموعة واحـدة ، أو أكثر ، من الاولاد من نفس العمر بالملاحظات « العرضية » ، بينما سميت الملاحظات المستديمة أو الـتي تتناول نفس الاولاد بالملاحظات « الطولية » .

بدأت أول ما بدأت الدراسات العرضية في ما نشره كوسمول (kusmaul) سنة ١٨٥٩ حول المواليد الجدد بعنوان :

Untersuchungen über das Seelenleben des neugeborenen Menschen .

أن سلم المستوى العقلي الذي نشره بينيه وسيمون في ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و ١٩١١ – وهو السلم الذي درس على مجموعات من الاولاد يتراوح عمرهم ما بين ٣ و ١٥ سنة – غالباً ما كان يَرِد ذكره في الدراسات التالية عن علم نفس الطفل.

وفيما خص الاولاد ذوو العمر قبل المدرسي (منـــذ الولادة حتى السن الخامسة) فان المساهمة الاوفر هنا تعود الى العـــالم النفسي الاميركي غيسيل (Gesell) الذي ، ابتداء من سنة ١٩١٩، انكب على تجميع الملاحظات المأخوذة في ظروف جد دقيقة في عيادة « نمو الطفل » في جامعة بال . كانت هـــذه

الملاحظات في آن واحد طولية وعرضية إذ يرتكز كتابه لسنة ١٩٢٥ ، « النمو العقلي عند الولد قبل الدراسة » [1] ، على فحوصات متكررة في اعمار مختلفة (من ٤ الى ٦٠ شهراً) لخمسين ولداً سويا وعلى عدد كبير من الفحوصات الاخرى أقل تسلسلاً وتكراراً . وتتناول ملاحظاته هذه الحركية ، والكلام ، والتكيف وردود الافعال تجاه الاشخاص ، هذا وان كلا منها محقق ضمن ظروف محددة تماماً ويتيح معرفة كيفية تصنيف الطفل بين اترابه من ذوي العمر نفسه .

يقدم غيسيل ١٥٠ موضوع بحث في ميادين وفي اعمال مختلفة، أمثال : الدفع بالرجلين ، استعمال الضمائر ، والجوع ، والماضي ، العد حتى الاربعة ، تزرير الثياب ، الخ ... وكلها تخضع لذات المعيار . وقد غدت هذه الملاحظات الصبورة المتأنية ، والتي لم ينفك غيسيل واعوانه يزيدونها غنى ، أكثر دقة أيضاً وأكثر حيوية باستعمال السينما استعمالاً منتظماً ممنهجاً .

ويمكن للملاحظات ان تطول أو تقصر ،وخلال السنة الاولى على الأقل ، قد تم اجراء ملاحظات متواصلة تتيح معرفة أي نسبة من وقته يستعملها الولد لكل نمط من النشاط : نوم ، بكاء ، الخ ... مثل هذه الملاحظات اجريت سنة ١٩٢٥ من قبل غيسيل في الولايات المتحدة ، ومن قبل بشتيرف في روسيا ، ثم بعدهما بسنوات قليلة من قبل ش. بوهلر BUHLER في فيينا .

تتيح ملاحظات من النوع الذي قام به غيسيل ، الحكم على نمو ولد معين وما اذا كان « سوياً » او « متقدماً » او « متخلفاً » بالنسبة الى ما هو ملاحظ عادة عند من هم في عمره . هذا الاستعمال الأول للملاحظات يدخل في نطاق علم نفس الفروقات – بالرغم من ان غيسيل أنكر ، سنة ١٩٢٥ ، ان يكون قد اراد تقديم « سلم للقياس النفسي يكون محدوداً وجامداً » .

لكن الملاحظات العرضية ، المجراة على سلسلة المجموعات ذات الاعمار المتفرقة ،

---

1 - The mental growth of the pre-school child .

يمكن أن تقدم ايضاً الأسس لدرس مشكلة عامة كمشكلة اكتساب الكلام ، ومفهوم العدد ، الخ ... في اطار هذا المنظور عمل ، منذ سنة ١٩٢٣ ، العالم النفسي السويسري ج . بياجيه .

يصف بياجيه منهجه ويعلق عليه في المدخل الى كتابه لسنة ١٩٢٦ عن « تمثيل العالم لدى الطفل » . وإذا كان يعترف بفائدة منهج الروائز فيما يتعلق بالتشخيص (Diagnostic) الفردي ، فهو يعتقد أن هذا المنهج لا يلائم دراسة أواليات التفكير الطفولي : لانه لا يتح تحليلاً كافياً للنتائج الحاصلة وخصوصاً ، لأنه لا يتيح « حمل الطفل على الكلام » بحرية كافية للحصول على المعدات (العتاد) التي تمكن من وضع الجواب في السياق العقلي للطفل « الامر الذي هو ضروري للتأويل المضبوط » . ويمكن الاكتفاء بالملاحظة الخالصة ، كما فعل بياجيه سنة ١٩٢٣ في كتابه « اللغة والفكر عند الطفل » : فقد اقتطف جُملاً لأولاد يلعبون ويتكلمون أمامه ، وعزلها ، ورقّمها ، ثم اقترح تصنيفاً بداله منطبقاً على مقولات (Catégories) وظيفية أولية (ابتدائية) . ليس هذا المنهج بعيداً جداً ، في أساسه ، عن منهج عالم الحيوان بياجيه ، الذي نشر عام ١٩١٢ ، وهو بعمر ١٥ سنة ، دراسات حول الرخويات في مقاطعة الجورا التي هي قرب مدينة نيوشاتيل ، وفي فالي ، وفي ليمان ، والذي قدم سنة ١٩١٨ أطروحة دكتوراه حول توزيع أشكال الرخويات في جبال الالب عند فالي. لكن هذه الملاحظات « البحتة » لم تعد تكفي السيكولوجي بياجيه (الذي يفسر تطور اهتماماته في كتاب اسماه : « حكمة وأوهام حول الفلسفة » ١٩٦٥) ، إذ يقول : لا يستطيع الولد التعبير عن كل ما يريد العالم النفساني معرفته ، ويصعب التمييز بين ما يقوله ليلعب وبين ما يعتقده حقاً . لهذا لا بد من الرجوع إلى ما يسميه بياجيه « الفحص العيادي » . كان يراقب فرضياته خلال المحادثات اللبقة التي يجريها والتي تمكنه من الحصول على ردود أفعال الولد ، مستسلماً جزئياً له حتى يصل

من خلال مجموعة المحاورة ، الى المعنى المقصود، لدى الطفل ، من تلك الأجابة المعينة . يمركز بياجيه احياناً هذه الأحاديث حول رائز معتبر كوسيلة فقط لمتابعة التحليل المنطقي ، وأحياناً حول تجارب صغيرة ذكية ، تستعمل كموضوعة (مَبحث) لسلسلة كاملة من الأسئلة : لماذا يصعد الماء في الكأس عندما نضع فيه حصاة ؟ هل تزداد المعجونة حجماً عندما نرققها ، وهل يزداد عدد الفيشات إذا فرقناها عن بعضها البعض ، الخ ... وتجمع الأجوبة وتصنف إلى مراتب تعتبر ، في أعمار معينة ، دلالة على انتقال إلى شكل من البرهان المنطقي أكثر تطوراً . وتوضح هذه التصنيفات بأجوبة العديد من الاولاد ، اجوبة تذكر كما هي تماماً ومفصلة ، أو تقدم بشكل جداول ذات نسب مئوية . وهكذا درس بياجيه عندالطفل ملكة الحكم وملكةالبرهان (١٩٢٤) ، والسببية الفيزيائية الطبيعية (١٩٢٧) ، والحكم الاخلاقي (١٩٣٢)، ومفاهيم العدد (١٩٤١) ، والكمية (١٩٤١) والوقت (١٩٤٦) والحركة والسرعة (١٩٤٦) ، والفضاء (١٩٤٨) ، والصدفة (١٩٥١) ، الخ . وفي سنة ١٩٥٥ أسس بياجيه في جنيف « المركز الدولي لعلم العلم النشوئي»[1]. وفيه يتعاون علماء النفس مع المناطقة ، والرياضيين ، الخ ؛ وقد نشر هذا مجموعة اسماها : « **دراسات في علم العلوم النشوئي** » ، صدر الجزء الاول منها سنة ١٩٥٧ .

ان المناهج التي مر ذكرها تتطلب كلها ، وعلى درجات مختلفة ، ملاحظة مفصلة وبالتالي ، طويلة نسبيا للاطفال المفحوصين . فهذا الغنى في الملاحظة يحدّ حتماً من عدد الافراد الموضوعين تحت الدرس . وهناك مناهج اخرى تتميز حول هذه النقطة ، عن المناهج السابقة : فهي ترتضي استعمال ملاحظات مجراة بصورة أسرع ، انما تتناول عدداً أكبر بكثير . القصد من هذا التبديل ، هو الميول فقط ، إذ في النهاية ، يتحد نمطا المناهج في بعضهما البعض . ومع ذلك فان بعض الاعمال المهمة قد استوحيت ، على ما يبدو ، من الموقف الثاني بشكل خاص .

---

1 - Epistémologie génétique . علم العلم (مبحث العلم) النشوئي أو التكويني

واقدم هذه الابحاث تمت بايعاز من ستانـــلي هلّ (S. Hall) في جامعة كلارك ، في الولايات المتحدة ، ولاسيما ابتداء من سنة ١٨٩٤ .

كان هلّ في المانيا ، تلميذ فوندت وهلمولتس. واهتم هناك بنتائـــج عملية استقصاء حول معارف الاطفال،تحققت سنة ١٨٦٩ في برلين باستعمال سلسلة من الاستمارات (طريقة استعملها غالتون باكراً في دراساته حول التوائم وحول الصور العقلية ، كما سبق أن اشرنا إلى ذلك) . ولمـّا عـــاد إلى بوسطن ، سنة ١٨٨٠ ، أخذ هلّ يطبق نفس المنهـــج على أولاد بدأوا دراستهم المدرسية ، ونشر النتائج في كتـــاب سنة ١٨٨٣ بعنوان : « **مضامين أفكار الاطفال عند دخولهم المدرسة** »[1] . كانت غاية التحقيق معرفة المفاهيم التي يمكن أن تعتبر مكتسبة في بداية المرحلة المدرسية . أدل « هل » أنه كان هناك القليل من هذه المفاهيم ، وانه إذا كان ٨٠ ٪ من أولاد الست سنوات مثلاً ، يعرفون أن الحليب يأتي من البقرة فان ٦ ٪ فقط كان يعلم أن الجلد هو من أصل حيوانـــي .

لكن «هلّ» لم يبتدىء باستعمال سلاسل الاستمارات بصورة منتظمة إلا منذ سنة ١٨٩٤ فقط،وذلك لدرس عدد كبير من مختلف مشاكل الطفولة والمراهقة : الخوف ، الشهية ، بداية المطالعة والكتابة ، أولى مظاهر الحس الموسيقي ، الولد الوحيد ، ردود الفعل في الظلام ، الـخ . واستمرت « حركة درس الطفل »[2] حتى الحرب العالمية الأولى . مع ذلك ، ومنذ العديـــد من السنوات ، تعرضت طريقة سلاسل الاستمارات لانتقادات حامية الوطيس . وأول من بدأ انتقاداً من هذا النوع هو ريبو في أول عدد من « **المجلة السيكولوجية** » . يعتقد ريبو أن علم النفس باستعماله للاستمارات ، لا يفعل غير أن « يراكم عملة مزيفة » . لقد كان يتعشم اجراء فحص بصورة انتقادية للطريقـة هذه ؛ ثم انـه يضيف : « وفي

1 - The contents of children's minds on entering school .

2 - Child Study Movement .

الختام ، بدأت الشكوك تحوم حول الاستمارات . والمنهج الاحدث - وهو منهج الروائز - والذي ما عليّ أن احاول تقييمه في هذا المقال ، يبدو لي كمحاولة مقبولة للحلول محلها » .

في الحين ذاته الذي كان فيه ريبو يكتب هذا ، كان بينيه يعمل على الانتهاء من وضع سلم الذكاء ، الذي كان من شأن نجاحه المساهمة بقوة شديدة في تحويل الاهتمام عن « الاستمارات » إلى الروائز .

ترجم هذا السلم عدة مرات في الولايات المتحدة . كان أبرزهـا ذلك الاقتباس الذي قام به ترمان (L . Terman) سنة ١٩١٩ والذي استعمل مـا صنعت يداه هو بالذات، عندماقام بابحاث على الصفات التي تميز الولد الموهوب « النموذجي » عن الولد السوي« النموذجي » . ثم نشر هذا نتائج ابحاثـه في سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠ بعنوان « **دراسات نشوئية حول العبقرية** » [1] . وقد فحص أكثر من ١٤٠٠ طفل كانت نتائجهم في الروائز تتجاوز النتائـــج التي حصل عليها ٩٩ ٪ من رفاقهم ، ثم أجرى مقارنة بينهم وبين جماعة مؤلفة من ٦٠٠ الى ٨٠٠ ولد غير منتقين . وتناول البحث لا الـذكاء الذي قيس بالروائز فقط ، بل شمل أيضاً العائلة ، والنمو الجسدي ، والتاريـخ الطبي والمدرسي ، والمعارف والاهتمامات . واتاحت الوسائل الضخمة المستعملة هنا امكانية فحص عدد كبير من الاطفال بدون الاقتصار الشديد على الفحص ذاته .

والاستقصاءات الاحدث زمناً زادت على نطاق واسع في عدد الاطفال الذين خضعوا لفحص أكثر اختصاراً ، بغية مواجهة بعض القضايا السكانية العامـة .

---

1 - Genetic studies of genius .

فقد درس في سكوتلندا، مجلس الابحاث التربوية السكوتلندي بتحريك من العالم النفسي تومسون ، تطور الذكاء لدى الاهالي وذلك باجراء الروائز على ٨٧٤٩٦ ولداً من عمر ١١ سنة في عام ١٩٣٢ و ٧٠٨٠٥ ولداً عام ١٩٤٧ . وفي فرنسا قام تحقيق حول « المستوى العقلي للاولاد في سن الدراسة »، وتناول الاستقصاء تطبيق رائز على ما يقارب من ١٠٠,٠٠٠ طفل يمثلون الجماهير الطلابية الفرنسية بين ٦ الى ١٢ سنة (مجلد رقم ١ ، السنة ١٩٥٠ ؛ والمجلد رقم ٢ لسنة ١٩٥٤)، وأجرى الاستقصاء المعهد الوطني للدراسات السكانيـــة . ثم اجرى تحقيق (استقصاء) جديد ، من ذات الحجم من قبل ذات المعهد بالتعاون مع المعهد الوطني لدراسة العمل والتوجيه المهني (١٩٦٥) . ونظم هذا المعهد الاخـــير استقصاءات تناولت عدداً كبيراً من المتغيرات الملحوظـة : ٢٥٠ ثقلاً لوحظت على ١٠,٠٠٠ طفل خلال استقصاء حول التوجيه في نهاية الحلقة الاولى الثانوية ، سنة ١٩٦٤ .

يتوافق هذا الاستعمال للعدد الكبير جداً من النتائج ، لدى المؤلفين في هـذا النوذج من الاعمال، مع الرغبة في السيطرة على ما يمكن أن تكون عليه الملاحظة اليومية لولد ما ، من تجزئة ومن رجرجة . ففي مجال الملاحظة لا يجب حتماً أن « تغطي الشجرة الغابة » . كما يجهد مؤلفون اخرون في تجنب الخطر ذاته بمناهج اخرى ، كالتحليل العاملي ، المنوه عنه في الفصل الثالث ، والذي يتيـــح التجميع معاً للاحداث التي تنزع الى الظهور أو إلى التغير بشكـــل متزا من

طبق بورت و هـ . واطسن ، سنة ١٩٥١ ، التحليل العـاملي على الدراسة « الطولية» لطفل واحد ،بنت صغيرة، تكررت عليها التجارب ذاتها خلال فترات مختلفة من عمرها . لقد مكن التحليل من إعادة تجميع السلوكات الـــتي ، عبر الزمن ، تـكاملت أو زالت معاً . ومن المعروف أن من شأن إعادة التجميع هذه (التصنيف) أن تسهل تأويل الملاحظات .

لكن العاملين بوجـــه عام ، يتصرفون على أساس دراسات « عرضية ». فيجري البحث ، على مجموعات من أعمار مختلفة ، لمعرفة اللحظة التي تبدأ فيها النجاحات ، في سلسلة معينة من المهام المختلفة ، بالميـــل الى التزاوج (فالطلاب الذين ينجحون في الاختبارات الاولى هم غالباً ، الذين ينجحون في الاخرى) . من الممكن تفسير هذه النزعة ، في العمر الذي تظهر فيه ، بانها أعمال لوظيـــفة سيكولوجية مرتبطة بكل المهام المطلوبة . وعلى سبيل المثال ، جرى البحث بهذه الوسيلة ، عن العمر الذي يبدو فيه « الاستعداد التقني » المتيح لارتجاء تنبوء بالنجاح المدرسي أو المهني اللاحق . طرحت القضية في انكلترا بشكل خـــاص حيث يمارس التوجيه المدرسي منذ السنة الحادية عشرة للطفل . وقد حاول العديد من علماء النفس البريطانيين حل هذه المشكلة باستخدام التحليل العاملي على سلاسل من مجموعات الاطفال من مختلف الاعمار : سلاتر (Slater) في سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٣ ، درو (Drew) سنة ١٩٤٧ ، ادكوك (Adcock) سنة ١٩٤٨ ، بيل (Peel) سنة ١٩٤٩ ، الخ .

كما يمكن أيضاً متابعة تطور الارتباطات الملحوظة بين بعض النتائــج ، من عمر الى عمر ، كحال الارتباطــات الحاصلة في المدرسة ، بصدد مواد مختلفة . وقد درس بوناردل ، سنة ١٩٥١ ، تطور هذه الارتباطات من الصف السادس الى الصف الثاني وفي البداية بدت النجاحات مترابطة ، متشاركة ، لا توحي بالنسبة للاولاد الاصغر عمراً ، إلا بفرضية عامل وحيد ، وإذن فهو عام ، هو النجاح في المدرسة . وابتداء من الصف الرابع فقــط تميزت مجموعتان من العلامات تضم الاولى المواد العلمية والأخرى المواد الادبية .

٣ ـ من وصف الاحداث الى النظريات التفسيرية

تم اتفاق عريض حول الكثير من الاحداث التي جرت وفقاً للمناهج الآنفة الذكر . وعلى العكس ، هناك اختلاف كبير جداً في النظريات التي ترنو الى شرح نموالطفل . حتى المسائل الابتدائية الاساسية يوجد حولها نقاش حاد : ما هو الدور الذي يجب أن تلعبه النظرية بصدد الاحداث الملحوظة ؟ في أي حين يقال أن حدثاًما لم يوصف فقط بل انه فسر أيضاً ؟ هذه المشاكل تعترض كل علم ، وبالاخص كل فروع علم النفس . الا انها لا تتخذ في أي مجال ، الحدة التي تأخذهافي دراسةالطفل ، وهذا ما يشكل اثباتاً جديداً للصفة « الرئيسية » لهذه الدراسة . وبالطبع ، فان أي عالم نفساني لا يدعي الاكتفاء بتقديم مجرد لائحة بسيطة بالملاحظات (هذا بالرغم من أن اعمال – تلك التي وردت هنا كثيراً – بريير وغيسيل هي بالضبط الاقرب من هذا الاتجاه) . كما أنه لا يدعي أحد ما الاكتفاء بالنظرية فقط والتجاهل عن عمد لكل معطى تجرّبي . إلا أن الاقتراب من الموقفين المتطرفين يتم أحياناً ، بينما تكثر المواقف الوسيطة بينهما.

أن التأثير الذي يحدثه اعتماد نظريات مختلفة ، أو اعتماد موقف الرفض لكل نظرية ، يبرز بجلاء ، على سبيل المثال ، بصدد قضية ذات مظهر بسيط كقضية مراتب أو مراحل نمو الطفل . فقد عمل الكثير من الكتاب على إعادة تجميع المكاسب المحققة خلال حقبات بدا لهم اثناءها حدوث شكل من التوازن الموقت ، المتميز بجملة من الصفات المتماسكة فيما بينها والمتراكبة (المبنينة) . إلا أن اختيار هذه الحقبات يتعلق الى حد كبير بالنظريات العامة

المتعلقة بالنمو . بحيث أن أوستريث (P. Osterrieth) – عندما حاول مقابلة ومواجهة ثمانية عشر مذهباً من المراتب التي قال بها الكتاب الاوربيون والاميركيون وذلك في دورة الدراسات التي قامت بها « الجمعية السيكولوجية ذات اللغة الفرنسية » (جنيف ، ١٩٥٥) والمخصصة لهذه المشكلة ، لاحظ أن هذه المذاهب تجزىء النمو الى احدى وستين حقبة زمنية مختلفة ، هذا بدون اتفاق كبير فيما بينها إلا فيما خص السنة الأولى من الطفولة .

عدا ذلك يمكن أن نلاحظ ، حول هذا المثل ذاته ، أن المضمون نفسه لمفهوم المرتبة Stade يمكن أن يختلف بين كاتب وآخر ، وذلك وفقاً لما يتخذ من اتجاه نظري عام . ذلك هو بشكل خاص ، حال كاتبين فرنسيي اللغة يحتلان مكاناً مرموقاً جداً في حقل علم نفس الولد وهما: بياجيه و هـ. فالون (H. Wallon) (١٨٧٩ – ١٩٦٢) .

بالنسبة إلى بياجيه ، يعتبر النمو ، بشكل جوهري ، تصاعدياً ، ومستمراً ، ومتسماً بوحدة وظيفية عميقة . واذن ، فمراتب النمو هي بمثابة الحدود ، المعالم ، على طول الطريق التي يتوجب على الولد اجتيازها ، مدفوعاً باستمرار بعدم تلاؤم تصرفاته ، نحو بلوغ حالة التكيف والتوازن الموجودة عند الراشد. وكتب سنة ١٩٢٦ « أن تاريخ نمو الطفل العقلي هو ، في معظمه ، تاريخ التجمعن (التأنيس) التدريجي لفكر فردي يكون في البدء مستعصياً على التكيف الاجتماعي ، ثم يأخذ في التأثر أكثر فأكثر بالمؤثرات المحيطة التي تصدر عن الراشدين » . هذا الانتقال التدريجي والطبيعي نفسه ، وهذا التقدم المستمر بدون انقطاع نفسه يوجدان في « الحكم الاخلاقي » (١٩٣٢) ، وهذه البنينة (Structuration) المتصاعدة ذاتها للمفاهيم الحسابية توجد أيضاً في درس ، في كتاب « ولادة العدد » (١٩٤١) . فشرح الذكاء يعني : وضع العمليات العليا على اتصال مستمر بكل النمو ، على أن يفهم هذا بانه تطور موجه من قبل احتياجات داخلية للتوازن. من ثم فهذه الاستمرارية الوظيفية تتحالف تماماً مع

تمييز البنيات المتتالية » (١٩٤٧) . وعندما حلل بياجيه الكتاب الذي هدف فيه فالون إلى شرح الانتقال عند الولد – في كتاب « من العمل إلى الفكر » (١٩٤٢) – من الذكاء الذي يتيح لنا منذ الوقت المبكر جداً أن نكيف حركاتنا حسب المواقف ، إلى الذكاء المجرد والتصوري الذهني الموجـــود لدى الراشد ، تعجب كيف انه لم يجد في كتاب فالون هذا « الاستمرارية بـين الصعيد المحرك وبين الصعيد اللفـظي – الحدسي » ، كما استنكر كيف يمكن ، بدون هذه الاستمرارية ، « تفسير الحادث الجوهري لسير العمليـات المنطقية نحو توازن تدريجي » .

وفي الواقع ، يبدو تسلسل مراتب الطفولة بالنسبة إلى فالون ، على انـه ، بصورة أساسية ، غير مستمر : « أن الانتقال من مرتبة إلى اخرى ليس مجرد تضخم بل هو تعديل ... وفيما بين المرتبتين ببدو ، في الغالب ، قيام أزمة ... فالصراعات إذن ترقّم وتسم الترعرع ، كما لو كان الامر يتعلق بالاختيار بين نموذج قديم ونموذج جديد من النشاط . فالذي من هذين النشاطين يخضع لقانون الآخر لا بد عليه أن يتحول ، ثم يخسر بعد ذلك قدرته على تنظيم سلوك الولد بشكل نافع » . ويصر فالون كثيراً على هذا المفهوم للنمو المنطبع « بالازمات » ، « وبالصراعـــات » التي يشبهها بـ « التحولات الفجائية (Mutation) « وبالثورات » في الكتاب ذاته (**التطور السيكولوجي للطفل** ، ١٩٤١) أو في كتب أخرى . ثم هناك عاملان لا ينفصلان يتدخلان في هذه الازمـــات : احدهما ، بيولوجي ، وقوامه نضوج الجهاز العصبي الذي يكمل في اوائل سنوات الحياة ، مما يتيح ، وعلى مراحل ، امكانيات فيزيولوجية جديـــدة للطفل ؛ والآخر ، اجتماعي ، تشكله المواقف التي يوصل اليها نضوج الوظائف لدى الطفل ، والتي بدونها لا يمكن لهذه الوظائف أن تنمو . والازمـات هي اللحظات في عملية النمو التي يصل فيها تطور هذين العاملين إلى نقطة يؤدي تفاعلهما فيها إلى ولادة نظام تفاعلات جديد . و « إلى سلسلة هذه النقط الاولى (الاصلية) تعود دراسة أصول التفكير عند الطفل » (١٩٤٥) .

وإذن ، فالاختلاف حول هذا المفهوم المرتبة جلي تماماً بين المؤلفين . ما هو مرد ذلك ؟ يعتقد فالون أن بياجيه يكتفي بوصف النمو في حين يعتقد انـه يفسره . وقد أخذ عليه هذا المأخذ منذ سنة ١٩٢٧ في التقرير الذى أصدره عن كتابه « تمثل العالم عند الطفل » . ثم عاد إليـــه كرة أخرى سنة ١٩٤٢ في الفصل الذي خصصه لبياجيه ضمن كتاب «من العمل إلى الفكر » (الفصل الذي « يشعر فيه بياجيه انه يجد صعوبة في معرفة ذاته » ، وهذا ما كتبه عندما قام بدوره بتقديم كتاب فالون) . وإذن ، هـذا الالتباس بين الوصف والتفسير ، بنظر فالون ، هو الذي يؤدي دائماً إلى اعتبار النمو سيرورة مستمرة . ولهذا الغرض كتب يقول ، سنة ١٩٤١ ، بصدد مراحل النمو : « يتم الانتقال، برأي بعض الكتاب ، من مرحلة إلى مرحلة بعبورات غير محسوسة ... ولا شك أن هذه الاستمرارية هي بالواقع ، كل ما يمكن أن يكتنه منها ذاك الذي يتفرغ لمجرد وصف المظاهر أو الا ستعدادات المتتالية التي تظهر في سلوك الطفل» .

وإذا بحثنا بعدها في أعمال بياجيه عن ما دفع فالون إلى تكوين هذا الرأي فاننا سنلاحظ فيها أن تحليلاته للنمو ترتكز على المسلمة القائلة بحتمية تكيف الولد وفقاً لعقلية ولمجتمع الراشد . ثم ان بياجيه ينطلق من هـــذا التكيف كما ينطلق من حادث . فبالنسبة له، «ان فكر الطفل ، منذ بدايات النطق ، معد للذوبان تدريجياً في الفكر الراشد » (١٩٢٦) ، ان « احتـــياج الاحتفاظ (بالكميات) يشكل نوعاً من التسليم المسبق الوظيفي في التفكير ... وهذا الاحتياج يفرض نفسه بالضرورة » (١٩٤١) ؛ وان النمو « يفهم على أنه تطور موجه من قبل احتياجات داخلية الى التوازن »، ويتعلق الذكاء « بقدرة الحياة ذاتها على التشكل النشوئي » (١٩٤٧) [1] .

إلا أنه من الجوهري أن نلاحظ ، بالنسبة إلى بياجيه ، أن القبول بهـــذه

---

١ – التشكل النشوئي Morphogénétique :سبق لنا أن استعملنا كلمة وراثي للدلالة على : Génétique ، كما تستعمل امياناً كلمة موروني .

المسبقيات [القبلويات] وبهذه الضرورات لا يشكل قط تخليـاً عن التفسير ، بل ان ذلك يتوافق مع نوع معين من الفهم للتفسير السيكولوجي : «ان التفسير السيكولوجي للذكاء يؤول إلى إعادة تقفي نموه مع تبيان كيفية انتهائه حكماً و بالضرورة ، إلى التوازن الذي سبق وصفه» . وكما هو الحال في علم الاجنـة (Embryologie) فان البحث السيكولوجي « يضحي « سببياً » منذ أن تصبح العوامل التي تؤمن الانتقال من مرتبة إلى مرتبة لاحقة عوامل واضحة للعيان » (١٩٤٧) .

على هذا ، فاننا لم نعد نجد أنفسنا تجاه مفهومين مختلفين لمراتب النمو ، ولا تجاه تضاد بين وجهة نظر وصفية ووجهة نظر تفسيرية ، بل نصبح بالتمام تجاه مفهومين للتفسير ، الامر الذي يحمل النقاش إلى مستوى أكثر عمومية .

بالنسبة الى فالون : « يبقى علم النفس ، خارج المادية الديالكتيكية ، علمـاً هجيناً ... وتكون بذلك المـــادية الديالكتيكية هي التفسير العقلاني ، الاكثر عقلانية من سواه ، لعلم النفس ... يجد علم النفس في المادية الديالكتيكية علة وجوده وتبريره ؛ كما يجد فيها دلالة وتوضيحـاً ولقضاياه الاساسية ... » (١٩٥٤) . وفي الواقع سيلاحظ ، بهذا المعنى، التشابه بين مفهوم النمو المتقطع عند الطفل وبين احدى الخصائص الاساسية للطريقة الديالكتيكية الماركسية التي تعتبر سيرورة النمو ، لا كعملية ترعرع بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية ، بل كنمو يتحول من تغيرات كموية تافهـة وكامنة إلى تحولات بادية للعيان وجذرية ، أي الى تحولات كيفـــية وكذلك أيضاً حيث تكون التحولات الكيفية ، غير تدريجية ، بل سريعة ، فجائية ، تقفز مـــن حال إلى حال قفزاً ؛ هذه التحولات ليست احتمالية بل ضرورية . وبذلك فهي حصيلة تراكم التحولات الكموية غير المحسوسة والمتدرجة . لقد ارتكزت على الملاحظة ،في البدء ، نظريات فالون عن نمو الطفل، بيد انها من جهة اخرى وعند من قبل الصلاحية الشاملة الجامعة المادية الديالكتيكية « أكثر اقناعـــاً نتيجة

اتفاقها مـــع قانون هو ، حسب قول فالون ، « يتحكم بتطور الكائن منذ النطفة حتى اندماجه في المجتمعات الانسانية ، مروراً بالانواع الحيوانيـة » (١٩٤٦) .

بيد أن هذا الدور التفسيري ، بالضبط ، الذي يعزوه فالون ، في مجال علم النفس ، الى نظرية شاملة ، هو الذي يفصله على ما يبدو ، وبصورة جذرية عن بياجيه ... وفي الواقع ، فانه بنظر هذا الاخير ، إذا ميزنا المشاكل العلمية عن المشاكل الفلسفية « فذلك ما يعني ببساطة النجاح في عزل هذه القضايا الأولى بحيث لا يؤدي حلها إلى وضع كل شيء على بساط البحث . في حين تبقى القضايا الثانية مرتبطة ومتعلقة بسلسلة غير محدودة من المسائل المسبقة ، الـتي تتطلب اتخاذ موقف بالنسبة الى شمول الواقع وكليته . واذن فهناك ، في تكوين أي علم ، رفض ضروري وعزم أكيد على عدم حشر الاهتمامـات – التي ، بالرغم عنا، تعز علينا والتي علينا أن نرغم أنفسنا على تركها خارج الحدود المرسومة – بالعرض الموضوعي على قدر الامكان للنتائج الـتي نصل اليها أو التفسيرات التي نلاحقها ... ان كل تاريخ الفكر العلمي هو تاريخ الانفصال التدريجي للعلوم الخاصة عن الفلسفة (المدخل إلى علم العلم النشوئي ، ١٩٥٠) »[1] .

نرى ، من خلال هذه المقارعة ما هي النتائج البعيدة – التي تصل تقريباً إلى حد ادراك الاحداث ذاتها – التي يمكن أن يؤدي اليها اتخـــاذ المراقب موقفاً نظرياً معيناً . ومهما كانت اهمية نظريات بياجيه وفالون في علم نفس الطفل ، فان المسألة تتجاوز هذه النظريات وتتجاوز علم نفس الطفل . وليست هذه بالمشكلة الجديدة : اذ يمكن مثلاً ، مع الإكتفاء بنـــقل الجدل السابق ، إعادة قراءة اعتراضات سبنسر على « تفسيرات » تطور الأنواع الحيوانية ، المقترحة من قبل لامارك وايراسم داروين .

---

1 - Introduction à l'épistémologie génétique , 1950 .

ان « التكيف الوظيفي » مع مقتضيات الحياة ، الذي أشار اليه هـذان الكاتبان ، لا يعتبر كافياً في نظر سبنسر . فقد كتب يقول في « مبادىء البيولوجيا » (١٨٦٤–١٨٦٧) : يبدو من وجهة نظرنا الحالية أن هذا العامل، كسبب للتطور ، هو سبب قريب ، وليس السبب الاول ... وطالما أن عملية تطور الاجسام لم تربط بعملية التطور بوجه عام ، فلا يمكننا أن نقول بيقين تام انها قد فسرت . ذلك ان ما هو ضروري اثباته هو ان تختلف نتائج التطور البيولوجي هي قرائن للمبادىء الاولى . والمهمة التي تقع على عاتقنا هي أن نوفق ما بين الاحداث والقوانين الشاملة المتعلقة باعادة توزيع المادة والحركة » . ومن المعروف ما كانت عليه بالواقع الشمولية لمبادىء سبنسر الاولى ، اذ أن المثل « الابسط والاوضح » الذي يعطيه سبنسر عليها هو تكوين النظام الشمسي (كتاب « المبادىء الاولى » ، ١٨٦٢) . الا ان المشكلة ما تزال قائمة ، كما دلت على ذلك المناقشات والخلافات التي وسمت ، في مجال علم نفس الطفل كما في مجال علم نفس الفروقات ، الحقبة التي كان فيها مفهوم جديد للعلم عرضة للدفاع عنه بحماس في الاتحاد السوفياتي ، وموضحاً ببعض الاعمال البيولوجية التي ألمحنا إليها في الفصل الثالث .

٤ ـ بعض النظريات المتشابهة في نمو الطفل

مع ذلك ، ودونما قبول نهائي للفكرة القائلة أن التيسير العلمي هو ربط للاحداث الخاصة بالنظريات الشاملة ، نرى الكثيرين ممن درسوا نمو الطفل قد اقتنعوا بان قوانين هذا التطور لم تكن غير متشابهة مع القوانين المتحكمة بالتطورات الاخرى : تطور الانواع الحيوانية والمجتمعات البشرية ، والتطور التقهقري للمريض . وقد آل الكثيرون الى استعمال هذا الترابط – الذي يعتبره البعض ضيقاً تماماً ، والبعض الآخر ،بعيداً جداً – لتوضيح وتأويل الملاحظات التي جمعوهاعن الطفل . وتختلفهذه التأويلات احياناً عن بعضها البعض كثيراً، وخصوصاً حول مشكلة دور الفطري ودور المكتسب ، دور الوراثة ودور

البيئة ، دور العوامل البيولوجية والعوامل الاجتماعية .

تعتبر هذه المقارنات والمجادلات متعددة ومتداخلة ، ويستحيل اعطاء لمحة عنها كاملة . لقد سبقت الاشارة الى بعضها : المقارنة بين الطفل والحيوان (وقد دفعت الى مقارنات ممنهجية قام بها بوتان سنة ١٩١٤ ويركيس سنة ١٩١٦ وكوتشالت سنة ١٩٣٣ ، وغيرهم) ، المقارنة بين الطفل والسقيم (بينيه ١٩٠٥ — ١٩٠٨) او المريض (فرويد ، ١٩٠٥) .

الا ان اعم المقارنات المستعملة بصدد نمو الطفل قامت على ملاحظة ان انتقال النطفة البشرية يمر بسلسلة متتابعة من المراحل التي تتطابق مع المراحل التي مرّ بها النوع الانساني خلال تطوره . وكان الاعتقاد ايضاً ان التشبه يمتد الى ما بعد الولادة وان نمو الطفل يذكّر بنمو المجتمعات الانسانية . وقادت هذه المقارنات المغرية بعض المراقبين الى تأويلات حكم عليها منذئذٍ انها ساذجة جداً : نعم ، هناك تشابه أكيد بين تطور الفرد وتطور النوع ، الا أنه أحياناً بعيد جداً ومشوش بصورة دائمة بمفاعيل البيئة الراهنة على الفرد . بيد انه تستطيع اسباب مختلفة ان تعطي فكرة ، فيما خص النوع او الفرد ، عن تتابع مراتب متشابهة بشكل تقريبي . ونرى كيف ان هذا النقاش يتعلق بالنقاش المتعلق بالاهمية النسبية التي هي لتأثير البيئة على النمو : فهذ التأثير لا يمكن الا ان يكون مهملاً بالنسبة الى الذين يرون ان النمو الفردي كان قد تحدد بصرامة بفعل التطور السالف للنوع .

تعود الدراسات الاولى المنهجية حول نمو النطفات ، على ما يبدو ، الى القرن الثامن عشر (وُلف ، ١٧٥٩) . ثم ان العالم الفيزيولوجي الالماني بائير C. E. Baer هو الذي وجهها في الاتجاه الذي يهمنا هنا . ففي كتاب له سنة ١٨٢٨ [1] قرر هذا العالم ، مثلا ، ان التطور الفردي عند جميع الحيوانات الفقرية ، هو واحد في خطوطه الكبرى ، حتى ليستحيل ، في بداية حياة النطفة ، التفريق بين نطفات الافاعي ، والعصافير ، والثدييات . وفيما بعد فقط وخلال مرحلة

1 - Ueber Entwickelungsgeschichte der Thiere .

التطور تبدأ تدريجياً الفروقات الشكلية ، في الظهور والانوضاح اكثر فاكثر ، حتى تتميز الاجناس المختلفة والفصائل المختلفة . اخذ هايكل ، استاذ علم الحيوان في جامعة يينا ، هذه الملاحظات وطورها ، واجرى موازاة بين هذا التمايز التدريجي في النطفات وبين التمايز التدريجي في الانواع ، سنة ١٨٦٦ ، في كتابه Generelle Morphologie des Organismen ، ولقد بنى على هذه الموازاة نظريته المعروفة باسم « قانون الحياة النشوئية (biogénétique) الاساسي » ، وهذا نصه : «ان تكوّن الكائن الفرد ontogénèse او التطور الفردي هو مراجعة قصيرة وسريعة لتكوّن الأنسال phylogénèse ، او لتطور المجموعة المطابقة لهذا الفرد ، اي للسلسلة السلفية [الجدودية] التي تحدر منها » .

الا ان الحجة قد تجاوزت ، قبل هايكيل ، نطاق علم الاجنة . كان سبنسر على علم بجهود بائير (انو استشهد بها في كتابه « مبادي البيولوجيا ») واستند اليه ، والى آخرين غيره ، لدعم نظريته العامة حول التطور . ثم كان سبنسر ، هو ايضاً ، اكثر اقتراباً مما سيصبح عليه اقتراب قانون علم الحياة النشوئية (biogénétique) في علم الاجنة ، وذلك عندما لاحظ سنة ١٨٦١ ، في كتابه « التربية : العقلية والاخلاقية والفيزيائية » ، وكان ذاك بصدد الاساليب التربوية الحديثة ، ان : « الحقائق المتعلقة بالعدد ، وبالشكل ، وبعلاقات الوضعية ، قد استخرجت كلها من اشياء مادية ، وان تقديمها للطفل بشكل عياني يعني تركها له لكي يتعلمها كما تعلمها العرق كله . وسنرى ، ربما ، قريباً جداً انه من المستحيل عليه ان يتعلمها بغير هذا السبيل » . وفيما بعد قام باستعمال واضح للنظرية الجنينية embryologique المتعلقة بـ « المراجعة الملخصة récapitulation » ، مثلا في مقاله سنة ١٨٩٥ عن : « مبدأ التطور . جواباً على اللورد سالسبري » .

يبدو ان سبنسر هو الذي ، بشكل خاص ، ادخل نظرية علماء الاجنة الى ميدان علم النفس . هذا وقد اشرنا سابقاً الى مؤلـفـيْن ذوي عنوان له مغزى : « مذكرة حول اكتساب النطق عند الاطفال وعند النوع الانساني » (هـ . تين ،

سنة ١٨٧٦) ثم « النمو العقلي لدى الطفل والعرق » (ج. م بالدوين ، ١٨٩٥) ونجد ذات النظرية في الندوة التربوية (pedagogical Seminary) بقلم برك F.L. Burk ، ١٨٩٨ ، وبقلم غييه (C. Guillet) ١٩٠٠ ، وفي المجلة الاميركية لعلم النفس » (American journal of P.) ، وكذلك في مقالات هل ّ سنة ١٨٩٧ ، وبولتن F. E. Bolton سنة ١٨٩٩ ، وداوسن G - E. Dawson سنة ١٩٠٠ ، وسلوتر سنة ١٩٠٢ وباترك سنة ١٩٠٣ الخ ... وهاتان الصحيفتان كان يشرف عليهما في الواقع داعية متحمس للنظرية النسالية [تكوّن الانسال] phylogénétique وهو العالم هلّ الذي سبق ان ورد ذكره مراراً . ففي مقال ، لسنة ١٨٩٧ ، نشر نتيجة فرز استماراته الاولى ، المخصصة لمخاوف الاطفال . وبحسب رأيه ، كل المخاوف لا يمكن ان تفسر بتجارب الفرد ذاته ، بل لا بد من القول بان بعضها هو من بقايا المخاوف الجدودية [السلفية] والتي لم يعد لها وجود منذ الاف السنين . الا انه يلجأ لاستعمال الفرضيات النسالية [تكوّن الانسال وتورّثها] اكثر ما يلجأ في كتاب « المراهقة » (١٩٠٤) . ان الحركات اللاارادية عند الطفل ما هي الا آثار من السلوكات التي كانت مفيدة في السابق والتي اضحت اليوم بلا لزوم وبالية (يشير ماكغرو M. B. Mcgraw ايضاً ، في سنة ١٩٣٩ ، الى ان حركات كل طفل صغير هي بنظره ، حركات سباحية ذات اصل موروث عن السلالة) . اما العاب الاطفال ، بنظر هل ، فهي بقايا نشاطات قديمة نافعة ، كالصيد او العراك . وقد توسع باترك ، في سنة ١٩٠٣ ، بهذا الرأي بمناسبة « سيكولوجية الفوتبول » . ثم عاد فأخذها هل سنة ١٩١٥ ملحاً على الدور المحرر ، « التطهيري » ، لهذه المراجعة الملخّصة ، عن طريق اللعب ، للنشاطات الجدودية (وهناك نظريات اخرى عديدة حول اللعب اتى بها : سبنسر ، غروس ، جانيه ، فالون ، شاتو ، الخ ...) . حتى الاهتياج الليلي ، عند المراهقين ، هو برأي هل ذكرى تأسّلية [ردة وراثية الى طباع الانسال السابقة] لليالي التأهب والسلب ... وفي زمن اقرب الينا فقد عولجت نظرية المراجعة الملخصة بحس انتقادي ارهف .

على هذا فقد أوحت المقارنة بين السيكولوجيا التكوينية psychogenèse العمليات الفكرية وبين الاثراء التاريخي للتراث الجماعي للعلم الى بياجيه ، ببحث كتابه « مدخل الى علم العلم التكويني » (١٩٥٠) (انظر ص ٨٩) .

٥ ــ تطبيقــات

لقـد آل بنا الامر ان نشير فيما مضى ، في بعض الفصول السابقة ، الى الكثير من التطبيقات لعلم نفس الطفل . فبمعرض نمو علم نفس الفروقات ، استطعنا ان نرى ان الكثير من الاعمال الاولى قد جرت في النطاق المدرسي : فالروائز التي استخدمها كاتيل وزملاؤه الاميركان سنة ١٩٠٥ ، جميعها قد طبقت على اطفال او شبان احداث . وانتشرت هـــذه الفحوصات بالروائز ، التي كانت تجري خلال المرحلة المدرسية لغايات التوجيه المدرسي ، اينما كان ، الا في الاتحـــاد السوفياتي وللاسباب التي وردت في الفصل الثالث .

ان دراسة المناهج التربوية لغرض تكييف افضل لهذه المناهج على امكانيات كل عمر ، قد جرت في كل مكان . ويبدو ان الدراسات التي قام بها ابنغهوس حول الذاكرة ، سنة ١٨٨٥ (والتي ذكرناها في الفصل الاول) هي الاكثر اقدميه : فقد ظهر انها شكلت ، في عصرها ذاك ، الاسس العلمية لعلم تربيـة جديد .

كما كان ، في كل مكان ايضاً ، العالم النفسي يبـــذل قصارى جهده ، بطريقة فردية ، في مساعدة الطفل على تخطي المصاعب التي يلاقيها اثناء نموه . ذلك هو المظهر العيادي لعلم نفس الطفل ، وتمكن رؤية اصوله في اعمال الفرنسي سيغين (ابتداء من سنة ١٨٩٦) ، التي اشرنا اليها في الفصل الرابع . هـــذا المظهر العيادي ، المعتمد اولا بصدد الاطفال الذين يلاقون صعوبات غير عادية ، قـد تعم حتى شمل الطفل السوي .

قد يكون طويلاً جداً هنا تتبع تطور المؤسسات التي – في بلدان مختلفة– اُستخدِمت ، بمثابة ملاكات [كادرات] لهذه النشاطات ، كما حصل الامر سنة ١٩٤٨ في المؤتمر الدولي الحادي عشر للتعليم الرسمي ، الذي دعت اليه منظمة اليونسكو ، ومكتب التربية الدولي ، او في الاستقصاء الذي قامت به اليونسكو ، سنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، حـــول مصالح ودوائر علم النفس المدرسي في الدول الاوروبية الاعضاء فيها . ونشير هنا الى ان انشاء مؤسسة العلماء النفسانيين المدرسيين في فرنسا قد تقرر ، بعد التحرير ، من قبل هـ. فالون . ولقد دخلت هذه المؤسسة الى حيز العمل عام ١٩٤٥ ، وقد كرس مشروع اصلاح التعليم سنة ١٩٤٧ المؤسسة هذه ، وعقد علماء النفس التربويون اول مؤتمر لهم سنة ١٩٤٩ . وابان السنة المدرسية ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ، في مقاطعة السين ، اجرى ١٤ عالمـــاً نفسياً تربوياً اكثر من ٥٠٠٠ فحص فردي واكثر من ٧٠٠٠ فحص جماعي . الا ان السيكولوجيا التربوية الغيت من هذه المقاطعة ، في مراحل التعليم الاولى ، في ايلول سنة ١٩٥٤ . وفي سنة ١٩٥٥ ؛ ظل بعض علماء النفس التربويون في وظائفهم في باريس ، في الكليات ؛ واستمروا في المدارس الابتدائية ، في ليون وغرنوبل . ثم ازداد عددهم كثيراً منذئذ . وانتقل المختبر السيكولوجي (النفسحياتي) المختص بالطفل ، والذي أسسه فالون سنة ١٩٢٨ ، الى ادارة ر. زازّو Zazzo منذ سنة ١٩٥٠ .

٦ علم النفس الاجتماعي

١ - المبادىء العامة

٢ -الاعمال التجريبية وتطبيقاتها

٣ - السيكولوجيا التاريخية عند ميرسون

١ ــ المبادىء العـــامة

١ ــ غرض علم النفس الاجتماعي. ــ ربما يكون من الصعب اعطاء تعريف لعلم النفس الاجتماعي يمكن ان يرضي جميع الذين يزرعون في حقله. الا ان الغالبية الكبرى منهم ستقبل دون ريب بتعريف غرضه الاساسي على انه دراسة التفاعلات الحاصلة بين الفرد والجماعات التي ينتمي اليها.

هذه الكلمة ، « تفاعل » ، تتضمن « التقابل » الذي يمكن اعطاء مثال بسيط عليه كما يلي : عندما ابدي رأياً فهو يعكس ،من جهة ، المعلومات ودرجات القيم التي تلقيتها من وسطي الاجتماعي . لكن حادث الافصاح عن هذا الرأي يساهم في تغيير هذه المعلومات وهذه الدرجات تغييراً طفيفاً جداً .هذا ، بحيث يكون اثر الوسط على كل من الذين يتألف منهم ــ ولا سيما عليّ انا ــ قد اضحى مختلفاً ولو اختلافاً بسيطاً . ويمكن تصور مقدار ما يمكن ان تكون عليه هذه الاواليات من تعقيد ، بمقدار كون التفاعلات بين الافراد وبين الجماعات لا تقبل الانفصال عن الأواليات هذه .

اذا كان التعبير « سيكولوجيا اجتماعية » قد استعمل منذ اواخر القرن الماضي ، واذا كانت الموسّعات التي تحمل هذا العنوان قـــد ظهرت في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ (روس E. A. Ross وماكدوغال Mcdougall) ،فان الابحاث التي يمكن ان ترتبط بها الدراسات المعاصرة ، تعود الى ما بعد سنة ١٩٢٥ .

في الواقع ، كان الاغراء قوياً من اجل تفادي تعقيدات المشاكل التي يطرحها

علم النفس الاجتماعي اذ كان يمكن ان يتم ذلك على اشكال عدة : اما بفصل دراسة الفرد عن دراسة الزُمر[1] (groupes) الاجتماعية، او بتفسير الفرد تماماً عن طريق الزمرة ، او بتفسير الزمرة بالفرد . وفي الحالات الثلاث ، تزول صعوبات دراسة التفاعلات . الا ان الغرض المقصود بهذه الدراسة ، اي الانسان الاجتماعي ، كان بذلك يفلت بذات الوقت ويحاد عنه .

وذلك هو ما تأسف له بلدوين (J . M. Baldwin) سنة ١٨٩٥ بهذه الكلمات : « نحن لا نملك سيكولوجيا اجتماعية لانـــه لم يكن عندنا عقيدة الشعور بالنوع (سوسيوس) Socius .

لقد تكونت عندنا نظرية الآنا ونظرية الغير ، لكن كونهما لا تكشفان عن هذا الشعور بالنوع ، يقضي بالحكم عليهما . وهكذا تخبط ُمنظّر المجتمع والنظم في بحار الماورائية والبيولوجيا ، دون ان يمد له اي سيكولوجيّ عوامة النجاة ، حتى ولا سمع احد ما استغاثته » .

كان بامكان اولئك الذين ، مثل بلدوين ، استطاعوا استشفاف غرض علم النفس الاجتماعي ان يتحولوا عنه باستسلامهم لاغراء آخر : ذلك هو تفادي صعوبات الدراسات التجريبية والموضوعية في سبيل التوجه نحو بناء النظريات والعقائد المتكونة «فوق مقعد وثير» . هذا ، بحيث اتيح للعالم الاجتماعي دوركيم ان يكتب سنة ١٨٩٨ : « السيكولوجيا الاجتماعية ... ليست الا كلمة تدل على جميع انواع العموميات ، المختلفة وغير الواضحة ، وبدون ان يكون لها غرض محدد » .

قد يكون من المفيد ان نذكر بعضاً من الاعمال التي ، لاجل واحـــد من الاسباب السابقة، تقع على مشارف السيكولوجيا الاجتماعية . ذلك ان حدود حقل هذه السيكولوجيا ليست حتى الان ، وفي الواقع ، محددة تماماً والى الدرجة التي لا يمكن معها لبعض من هـــذه الاعمال على الاقل ان تعزى اليها بالذات .

١ – او المجموعة الجماعة

ينطبق هذا القول ، بصورة خاصة ، على الابحاث الاكثر حداثة زمنياً والتي ، من زاوية مناهجية ، تنجو من حكم دوركيم القاسي .

لا يمكن طبعاً ، للتفاعلات بين الفرد والزمرة الاجتماعية ان تؤخذ بعين الاعتبار اذا درست بمعزل عن بعضها البعض . هذا على ما يبدو هو ما قام به فوندت . لقد خصص هذا قسما من نشاطه من اجل سيكولوجيا تجريبية محققة في المختبر والتي ، كما رأينا في الفصل الاول ، تستهدف بصورة خاصة قوانين سيكولوجية تصلح ، كالقوانين الفيزيولوجية ، لاي ممثل كان للنوع الانساني . في حين ان عمله في «سيكولوجية الشعوب» تكشف عن منهج مغاير : انه تجميع تاريخي واسع النطاق ، ظهرت مجلداته العشر الاولى ما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ .

كما لن يمكن التوصل ايضاً الى درس التفاعلات اذا لم نعتبر سوى اثر الزمرة الاجتماعية على الفرد . والموقف المتطرف بهذا المعنى هو ان يفسر الفرد تفسيراً كاملاً عن طريق الجماعة . فالمقولات التي تمكننا من التفكير بل والعواطف التي نشعر بها ضمن عائلتنا ، تأتينا من المجتمع ، في حين انه قد لا يكون هناك انتقال ممكن من « التمثلات الفردية »الى«التمثلات الجماعية » التي اعطت للاولى الحياة . تلك هي الاطروحة التي دافع عنها دوركيم سنة ١٨٩٨ . ثم قامت اراء اكثر تفارقاً ، لكنها اعلنت ايضاً اهمية كبرى لتأثير المجتمع الى درجة تنتفي معهـا تمامـاً الغاية من السيكولوجيا الاجتماعية ؛ هذه الآراء عبر عنها سنة ١٩٢٥ هليفاكس في كتاب « الاطر الاجتماعية للذاكرة » ، و ش . بلونديل سنة ١٩٢٧ في معرض بحث الادراك والذاكرة والحياة الوجدانيـة (كتاب « المدخل الى السيكولوجيا الجماعية ») . وهناك أعمال اخرى ، من وحي مختلف تماماً ويمكن ربطها بالاعمال السابقة من جهة كونها تنير الاثر المكوّن الذي تحدثه الجماعة الاجتماعية على الفرد والتي تعبر على انها شيء خارج عنه . ويصبح هذا الاثر بديهياً خاصة عندما يقيم علماء النفس وعلماء المجتمع اتصالا مباشراً مع الشعوب البدائية التي نبه اليها فرازر (Frazer) (١٨٥٤ – ٩٤١) في كتابه « الغصن

الذهبي » (١٨٩٠) The Golden bought . فثقافة هذه الشعوب ، المختلفة تماما عن ثقافتنا ، والمختلفة بين شعب وشعب ، ترتبط ارتباطاً جلياً تاماً ، باختلاف النفسية الفردية ، بحيث كان من الصعب انكار تأثيرها . وقامت بعثات تضم علماء نفس وانتروبولوجيون [نياسيون ، علماء الانسان] في اواخر القرن الماضي (١٨٩٨ : بعثة كمبريدج الانتروبولوجية الى توريس ستريتس (Torres Straits) والى ساراواك ؛ ١٩٠٠ : بعثة جيسوب Jeusup الى شمالي الباسفيك) . الا انــه توجب انتظار العقد ١٩٢٥ — ١٩٣٥ ليقوم كتاب اميركيون امثال مالينوسكي (Malinowski) (ميلانيزيا) ، ور . بنديكت (Benedict) (الهنود الاميركيون) ، اوم . ميد (M. Mead) (ساموا ، غينيا الجديدة) فيدللوا الى اي حد كبير يكون فيه البدائي نتاج ثقافته : مثال ذلك ، ان مفهوماً يؤول الى التحليل النفسي كمفهوم « عقدة اوديب » ، لن يلغى له وجود في مجتمعات لا يكون فيها دور رئيس العائلة موكلاً بالاب .

والطريقة الثالثة لتجنب المشكلة الرئيسية في موضوع السيكولوجيا الاجتماعية تماثل الى حد ما الطريقة السابقة : ومؤداها تفسير الجماعة بالفرد تفسيراً كاملا ، اي ان نرى في صفات الجماعة الاجتماعية النتائج المباشرة والمحتوية لما في الافراد من هذه او تلك من الميزات . ويمكن ان نجد بسهولة ، في تاريخ الافكار الاجتماعية ، كثيراً من النظريات التي ترتكز على صفة تنسب الى الانسان كفرد مثل « الميل الى الشر » او « الطيبة الاصلية » ويظن تارد ، وهو قريب العهد منا (١٨٤٣ — ١٩٠٤) ، ان الحياة الاجتماعية ترتكز على الاختراع ، المُحدِث للتجدد والتقدم المتنوع وعلى التقليد الذي يؤمن الاستمرار والاستقرار في المجتمعات . لكن ، اذا كان مفهومه عن التقليد يؤدي به الى مجال السيكولوجيا الاجتماعية الخاص ، فان مفهومه عن التفاعلات يعطي للفرد فيها دوراً لايقل أهمية عن مفهوم التقليد : « اذا استبعد الفردي فلن يبقى للاجتماعي شيء ابداً ، ثم ... لاشيء في المجتمع ، ولا شيء اطلاقاً ، ليس بموجود — في حالة تجزؤ وتكرار مستمر — في الافراد

الاحياء ، او لم يوجد سابقاً الاموات الذين أنجبوا هؤلاء الاحياء». يرى ماكدوغال (١٨٧١ – ١٩٣٨) الاحداث الاجتماعية كمظاهر لغريزة تدفع بالانسان الى العيش في المجتمع . او لم يقـــل ارسطو من قبل ان « الانسان هو حيوان سياسي » ؟ نحن نعرف جميعاً كم هي الغرائز جامدة ، ونعرف ايضاً ، بالتالي ، ان مثل هذه النظرية لا يمكن ان تترك مكاناً للتأثيرات المتبادلة بين الافراد والمجتمع. ان تارد وماكدوغال هما بالاساس عالمان نظريان. وفي زمن اقرب الينا قام العالم النفساني الانكليزي ايزنك (ابتداء من سنة ١٩٤٤) بالدراسة الاحصائية (التحليل العاملي) للمعطيات التجريبية المجموعة عن طريق الاستمارات . وقد توصل الى ان الاتجاهات الاجتماعية تنتظم في « عاملين » الراديكالية – النزعة المحافظة ، ثم العنف – النزعة اللطفانية . اننا نشير هنا الى ابحاثه لانه وجد هذين العاملين ذاتهما في بريطانيا العظمى ، وفي السويد ، وفي المانيا ، وفي فرنسا ، وفي الولايات المتحدة ، مما يوحي بفكرة استقلال ما للاتجاهات الاجتماعية بالنسبة الى التأثيرات التي تحدثها على الافراد المجتمعات الخاصة التي يعيشون فيها .

٢ – الاتجاه العام للمناهج . – ادت الجهود الفكرية حول علاقة الفرد بالمجتمع في اغلب الاحايين الى قيام انظمة فكرية عامة ، عامة جداً ، وغير مكرسة لان تقيم وتقرر وقائع دقيقة محددة بل كانت على الاكثر دعوة الى نموذج ما من اعادة التنظيم الاجتماعي . نجد بعضاً من هذا الروح في اقدم الابحاث التي قلنا انها كانت تشكل اطار السيكولوجيا الاجتماعية الحالية : فالاكثرية منها لا تبدي عن اي اهتمام بالدقة في اقرار الوقائع ، وتتلقى بدون تمييز وتمحيص الطرق المختلفة . وبذلك فليس اسهل فيما عناها من تفسير مجموع هذه « الاحداث » بواسطة نظرية عامة واحدة ، كنظرية الغريزة التجمّعية (grégaire) [القطيعية] لصاحبها ماكدوغال كما يتراءى ايضاً الميل الى اعطاء الاحكام بدلا من الوصف والتفسير ، على سبيل المثال ، من سلال مولـّف غ . ليبون (G. le Bon) ، حول « سيكولوجية الجماهير » (١٩١٥) : فالفرد بين الجماهير يتقهقر الى حالة بدائية

ويستعيد افتراسية العصابة . قاومت السيكولوجيا الاجتماعية بشدة ، هــذه الروح ، وأخذت تبزغ هنا وبوضوح تام النزعة الى الاقلاع عن النظريات المغرقة في عموميتها ، هذه النزعة التي شاهدنا مثلها في فروع اخرى من علم النفس ، وقد اتضح ذلك ، على ما يبدو ، بجلاء تام بسبب ان الخطر – وهو خطر الخروج عن النطاق العلمي – هو هنا اكبر منه في أي مكان آخر . وتنزع جميع الاعمال المعاصرة ، على درجات مختلفة من الفلاح والتوفيق ، نحو مناهج الملاحظة او التجربة ، المناهج التي لايمكن ان تتأثر بآراء الشخص الذي يستعملها والتي لا تحكم مسبقاً على النتائج التي يمكنها ان تؤدي اليها . ومن ثمت كان ان تناولت هذه الاعمال ، بحكم الضرورة ، عدداً أقل من القضايا في حين ان البناء التقني لعب فيها دوراً اكبر بكثير . كما جعلت الخاصتان هاتان انشاء التركيبات (syntèses) العامة اكثر فاكثر صعوبة ، حتى لأمكنت الخشية من التجزئة والتنافر في حقل السيكولوجيا الاجتماعية المعاصرة .

ويبدو انالسيكولوجيا الاجتماعية قاومتهذاالخطرببحثها عنمفاهيم يمكن ان تستعمل فيدراسة القضايا المختلفة ويمكن انتقدم مصطلحات ومفاهيممشتركة. وهكذا ، بجذرها من النظريات العامة ، وجدت السيكولوجيا الاجتماعية مثل هذه المفاهيم على مستوى اكثر واعلى تقنية واصرح : هو مستوى « النماذج ».[1]

يؤلف استعمال « النماذج » شكلامن البرهان القياسي (Par analogie)سبق ان رأيناه في بعض الفصول السابقة . لقد لاحظنا ، مثلا ، ان نظرية رياضية عن الاتصالات (الهاتفية او غيرها)قد امكناستعمالها في السيكولوجيا التجريبية. وهذا لايعني بالطبع اننا شبهنا الانسان بكل سذاجة بمصدر للاشارات . لكن نموذج البرهان الذي مكّننا من وضع مشاكل الاتصالات بشكل رياضي بـــدا مقبول التطبيق ، وبشكل مفيد ، على بعض المشاكل النفسانية ذات المحتوى المختلف تماماً . ويقال ،في مثل هذه الحالة ،ان العالم النفسي استعمل « نموذجاً » مأخوذاً عن الاتصالات. هذهالكلمة ، نموذج ، لاتتضمن اي حكم قيّمي وتكتفي

---

١ – نموذج ، في هذا الفصل ، موضوعة لتقابل « موديل » أو طراز .

فقط بالاشارة الى نوع من المشابهة في الشكل .

على ذلك اذا كانت السيكولوجيا الاجتماعية ، كما رأينا ، ليست العلم الوحيد الذي يستعمل النماذج فانها ، على ما يبدو ، قد اسرفت في استعمال هذه النماذج التي تشكل حالياً ،بعد تمثلها وتكييفها الى حـــد ما ، الهيكل الذي يعطي للسيكولوجيا الاجتماعية تماسكها ووحدتها . هناك في الواقع سببان لذلك : التعقيد والصفة التجريدية لقضية تتعلق بدرس العلاقات المتبادلة ؛ ثم هناك تأخر السيكولوجيا الاجتماعية نسبياً ، هذه السيكولوجيا التي يمكن ان تنتفع من اشـــكال الفكر المنجزة في مجالات اخرى ، ولا سيما في مجالات علم النفس الاخرى .

٣ — « النماذج » المستعملة في السيكولوجيا الاجتماعية . — اقدم هذه الاشكال الفكرية واسهلها تمثلاً هو مفهوم الاتجاه (attitude). فاتخاذ اتجاه ما يعني الاستعداد للتصرف ضمن وجهة ما . هذا المفهوم استعمل اولاً في علم النفس بصدد الاتجاهات الجسدية ، ويطبق على حالة ما من التوتر في العضلات . لقد سلطت الاضواء على دور هذه الاتجاهات المحركة في مجال الادراك (لانج ، ١٨٨٨) ، وفي مجـــال الانتباه (مونستربرغ ، ١٨٨٩) ، وفي حقل الوعي (فيري — Fere ١٨٩٠) . وتبين فيما بعد ان نفس هذه الاتجاهات تشكل وسيلة لفهم الآخرين (بالدوين ، ١٨٩٥ ؛ جيدنكس ، ١٨٩٦ Giddings ، الخ ...) . ويعود الفضل في تعميم هذا المفهوم ونقله الى السيكولوجيا الاجتماعية الى توماس (W. I. Thomas) والى زنانيكي (F. znaniecki) الذين نشرا سنة ١٩١٨ : The Polish Peasant in Europe and America [1] . في هذه الحال لم يعد الاتجاه استعداداً محركاً للعمل . انه حالة فكرية تدعو الفرد الى تكوين رأي ، والى التصرف بشكل ما ، ازاء غرض اجتماعي (مثل النقود ، والاجانب ، او نظرية ما ، الخ ...) . ولقد ادى توسيع المفهوم هذا الى صعوبات جمة من اجل تعريفه بشكل دقيق :

---

١ — الفلاج البولندي في أوروبا وأميركا .

هكـــذا استعرض البورت ، سنة ١٩٣٥ ستة عشر تعريفاً مختلفاً كما استعرض نلسن ، سنة ١٩٣٩ ، ثلاثة وعشرين . بالرغم من الصعوبة هذه بدا نجاح هذا المفهوم ضخماً : فهو ذو مظهر مزدوج ، فردي وجماعي ، يتجاوب مع الطبيعة العمومية لقضايا السيكولوجيا الاجتماعية ؛ وبصورة عرضية يتجاوب هذا المفهوم ، عن طريق الاساليب [التنقيات] التي سنتكلم عنها ، مع التعبير الرقمي ومع المعالجة الاحصائية ، التي تفرض نفسها بالضرورة هنا وفي المجالات الاخرى من السيكولوجيا . هذا ، بحيث يبدو توماس وزنانيكي على حق ، الى حد كبير ، عندمـــا يعرّفان السيكولوجيا الاجتماعية كلها عن طريق الدرس العلمي للاتجاهات .

ومن اهم مقتبسات علم النفس الاجتماعي الاخرى ، هو مـــا اقتبسه عن سيكولوجية الادراك وبصورة خاصة عن الابحاث المأخودة عن المدرسة الشكلية (الجشتلطية) .فنحن نذكر ان فرتيمر افتتح سنة ١٩١٢ اعمال هذه المدرسة مبيناً ان الحركة ، بالنسبة الى الشخص الذي يدركها ، ليست قابلة للتجزئة الى احساسات بدائية بل تؤلف كلا أو « شكلاً » . واذن لا يمكن تدبر مختلف عناصر الادراك كل منها على حدة : فهي تتفاعل فيما بينها الى درجة انه يكفي احداث تغيير في أحدها حتى يتغير تماماً ادراك المُجمَل. وقد بين الشكليون [الجشتلطيون] دونما تلكوء ان طريقة التفكير هذه تنطبق أيضاً على القضايا الاجتماعية (كوهلر ١٩٢٩ ؛ كوفكا ، ١٩٣٥) انما توجب انتظار السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية حتى صار متواتراً عرض قضايا السيكولوجيا الاجتماعية بهذه الصيغة . فقـــد تم الاعتراف ، غالباً ، عندئذ ، بان المواقف الاجتماعية يمكن تدرك ، هي أيضاً ، كـ « كل » مُبنَين [مبنيّ ، متراكب] ؛ وان قوانين ادراك الاشياء ، المقررة في مجال السيكولوجيا التجريبية ، من قبل الجشتلطيين ، تطبق على ادراك كل واحد منا لشخص وعمل الآخرين ؛ وان السيكولوجيا الاجتماعية يمكن ان يكون لها وقع عملي بالغ ، اذا جلا انها قادرة

على افهام كل واحد كيف يمكن ان يكون ادراك العالم الخارجي من قبل الغير : اي من قبل مواطن هذا البلد او غيره ، او من قبل عضو هذا الحزب او ذاك ، الخ . . .وقد الهمت طريقة عن القضايا على هذا النحو ، مثلاً ، المقال الشهير الذي نشره كرش (D. krech) وكروتشفيلد (R. S. Crutchfield) سنة ١٩٤٨ تحت عنوان : « نظرية ومشاكل علم النفس الاجتماعي » . [١]

استغل العالم النفسي الجشتلطي ك . ليفين (١٨٩٠ – ١٩٤٧) ، وهو مهاجر ايضاً الى الولايات المتحدة مثل كوهلر وكوفكا، إستغلالاً مختلفاً قليلاً ، الفكرة القائلة بان المواقف الاجتماعية ، كل منها ، يشكل « كلا » « مُبنَياً » . وقد اصر هو خصوصاً على درس القوى التي من مفاعيلها الاخبار عن تكوّن ، واستقرار ، وتحول هذه البنيات (structures) « وهكذا فتح نهجاً في العمل جديداً : هو درس « دينامية الجماعات » . واستعمل على نطاق واسع النماذج الرياضية . وهكذا عمل ادخال المفهوم الغشتلطي للادراك الى حقل السيكولوجيا الاجتماعية مجموعة كاملة من المعادلات ، من القوانين . اما بقية الاستعارات فلم تكن دائماً بمثل هذة الاهمية .

قد يمكن ان لا يكون مفهوم الدور ، الذي استعارته السيكولوجيا الإجتماعية من الفن الدرامي ، قد جلب معه بُنية [بناء] متينة بمثل متانة المفهوم الجشتلطي عن الادراك . « ففي الحياة الإجتماعية ، يتوجب على الفرد ان يكون قادراً على ان يتخذ لنفسه ، بين تارة وأخرى ، جملة مواقف ذات معنى بالنسبة الى الآخرين : فهو على ذلك « يلعب » « دور » الزوج ، دور رب العمل ، دور الخباز ، الخ . . . ثم انه مضطر لأن يكون قادراً أيضاً على فهم « الادوار » التي يرى الآخرين يلعبونها . وقد استخرج مفهوم « الدور » ، اولاً ، ميد (G. H. Mead) خلال

---

1 - Theory and problems of social psychology.

المحاضرات التي قدمها في شيكاغو ، في السنوات الأخيرة من القرن الماضي . ويُستعمل هذا المفهوم حالياً ، في معاني مختلفة الى حـد ما كل من مورينو (L, Moreno) ، ونيوكب (T. K. Newcomb) ، الخ .

هناك مفهوم آخر ، هو مفهوم التواصل ، لم يستعمل بعد تماماً في مجـال السيكولوجيا الاجتماعية . وقد ركز الانتباه ، منذ التجارب المهمة التي قام بها مايو (Mayo) وروثلسبرغر(Roethlisberger) وغيرهما ،المحققة بين سنة ١٩٣٩ في محترفات هوترن التابعة لـ وسترن الكتريك كومباني (وسنتكلم عنها) ،على أهمية نقل المعلومات نقلا جيداً بين المجموعات الاجتماعية . وتبذل جهود لايجاد مناهج تتيح معرفة الكيفية التي يتم فيها تداول هذه الاخبار او المعلومات ، ويقال عندئذ اننا ندرس « الطرق وشبكات المواصلات » بين الجماعات . في حين يبدو ، في اكثر الأحيان ، ان الامر لا يعدو ان يكون صورة لا تحمل معها اي شكل من التفكير الخاص المعين . الا أنه يمكن للنظرية الرياضية عن المواصلات التي سبق ذكرها (شانون (shannon) ، ١٩٤٨) ان تقدم هنـا «نموذجا» رياضياً امتن بنـاء (بافيلاس Bavelas ، ١٩٥٠) ؛ هيزي Heise وميلر Miller ، ١٩٥١) .

خلال الحرب العالمية الثانية ، نما استعمال النماذج الرياضية في السيكولوجيا الاجتماعية نمواً واسعاً بفضل العلماء الذين كانوا يعملون ، في الجيش الاميركي ، لمعالجة القضايا التي تطرحها : « الاخلاق » ، الدعاية ، الاتجاهات ، الخ ... ان استعمال امثال هذه النماذج هو الذي اتاح بصورة خاصة ، تقدم قياس الاتجاهات تقدماً محسوساً وقد نشرت هذه الابحاث ، التي يصعب جداً تلخيصها ببضعة اسطر ، من قبل ستوفير (S. A. stouffer) ول . غوتمان (L. Guttman) وغيرهما ، سنة ١٩٥٠ ، في كتاب : « القياس والتنبوء » Measurement and Prediction الجزء الرابع من النشرة المهمة المخصصة لدراسات السيكولوجيا الاجتماعية خـلال الحرب العالمية الثانية والتي قام بها فريق من السيكولوجيين

الأميركيين) وفي سنة ١٩٥٤ ، في كتاب جماعي نشره لازارسفيلد P.F. Lazarsfield بعنوان : « التفكير الرياضي في العلوم الاجتماعية » .

وقد عملت هذه الانماط المختلفة من النماذج ، احياناً ، على بعث اعمال تجريبية. ومرات أخرى ، طبقت هذه الانماط على ابحاث سابقة لظهورها (كما استعمل علم الوراثة المنديلي بعد الحين ، ودون ما سابق علم ، كأساس نظري لابحاث تتعلق بعلم النفس الفارقي من قبل ان تعرف هذه السيكولوجيا) .

وسنستعرض الأهم من هذه الأعمال .

٢ ــ الاعمال التجريبية وتطبيقاتها

١ ــ دراسة الاراء والاتجاهات . ــ اذا كان مفهوم الاتجاه هو أحد المفاهيم الاساسية جداً في علم النفس الاجتماعي المعاصر ، فان دراسة التعابير اللفظية للمواقف والآراء قد سبقته اشواطاً . ان أهمية معرفة حالة الرأي العام ، بالنسبة الى الحكام ، هي المنشأ او في اساس هذه الدراسة . كما اعطاها تطور الصحافة الكبرى دفعة جديدة الى الامام . وقد اكتسب قيمة علمية بفضل الأعمال التي قام بها الإحصائيون على اساس « العيّنات » والتي قام بها السيكولوجيون حول سلالم الاتجاهات .

لن نتوسع في بحث ظهور ما يسمى بـ « الرأي العام » . انما نذكر ان فيكو (١٦٦٨ – ١٧٤٤) امكنه ان يكتب : « يعطي الشعب للقوانين المعنى الذي يعجبه ، ويتوجب على الاقوياء ، شاءوا أم أبوا ، ان يراعوا القوانين بالمعنى الذي يفهمه بها الشعب » . ومنذ بدية القرن الثامن عشر ، كانت الحكومة الانكليزية تستعلم عن الرأي العام بواسطة شبكة من المراسين كان المسؤول عنهم دانيال ديفو بالذات ، مؤلف كتاب روبنسون كروزووي . اما نابليون فقد كلف بذات المهمة الكونت دي لا فاليت . وفي الولايات المتحدة ، سنة ١٨٢٤ ، نظمت صحيفتان هما : هاريسبورغ بانسلفانيان وراليغ ستار « بمناسبة الانتخابات

الرئاسية ، « انتخاباً وهمياً » . فقبل الانتخابات ببضعة ايام سئل القراء الذين امكن الاتصال بهم ، بأية وسيلة كانت ، املاء نشرة تصويت وهمية . وبعد فرز هذه الاصوات الوهمية ظن المنظمون أنهم يستطيعون اعطاء تنبوء عن الانتخابات الحقيقي بل وربما أيضاً التأثير على نتائجه. وتكررت هذه الانتخابات الوهمية حتى سنة ١٩٣٦ ، حيث لم تعط احداها ، المنظمة من قبل مؤسسة « ليتراري دايجست » ، بمناسبة اعادة انتخاب روزفلت ، الا تنبؤات غير مضبوطة . في حين أعطت ثلاث عمليات سَبر (sondages) منظمة تنظيماً علمياً (من قِبلْ كروسلي ، روبير ، غالوب) تنبؤات مضبوطة . وبالواقع كان الانتخاب الوهمي بتوجهه الى أي كان دون مراقبة ، يعطي غالباً تنبؤات خاطئة ، لأن الفئة التي تشترك فيه لا تمثل مجموعة الناخبين تمثيلاً صحيحاً . وتحسنت الطريقة بفضل التقدم الوافر الحاصل عن طريق الاحصاء ، وخصوصاً بفضل أعمال الاحصائي النروجي أن . كيايير (kiaer) ، في اواخر القرن الماضي . ولقد عُرفت في وقت مبكر كيف تشكل عيّنة من الاشخاص تركيبهم العددي مناسب ومماثل لتركيب السكان العلم في المهنة ، المنطقة الجغرافية ، الخ ...وكان هؤلاء الأشخاص ، المختارون عشوائياً من بين جميع الأشخاص المستجمعين الشروط المطلوبة ، يُسألون من قبل جملة من المحققين المعدّين خصيصاً لهذه الغاية . وكانت هذه العمليات السبرية [السبرات] تجري في البداية على ايدي أجهزة خاصة تدرس ، من أجل اهداف تجارية ، سوق الاستهلاك (عادات ، تفضيلات ، رغبات المستهلكين) . هذه الشبكات المقامة خصيصاً لهذه الغاية هي التي استخدمت السبر في الانتخابات الرئاسية لسنة ١٩٣٦ . لقد عمل نجاح التجربة على تطورها . وعقب سنة ١٩٣٦ ، استلحقت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة بنفسها عالم اجتماع كلفته بتزويدها بالمعلومات عن رأي المزارعين . وسرعان ما تبنت هذا النهج اجهزة عامة أخرى استعانت أكثر فاكثر ، سواء في الولايات المتحدة ام في بريطانيا على الاخص ، ولا سيما في فترة الحرب العالمية الثانية وعقبها ،

باجراءات السبر وخدماته . في مؤازرة ذلك تطورت دراسة الرأي العام ضمن المجال الجامعي اتساقـاً مع تزايد الاهمية التي ارتداها مفهوم الاتجاه في مجال علم النفس الاجتماعي وقد تجلت هذه الموازاة ، في فرنسا ، في المهمات المزدوجه التي قام بهاج . ستوتزل (J. stoetzel) (الذي أخذنا عنه عناصر الفقرة السابقة) ، الذي أسس سنة ١٩٣٨ المعهد الفرنسي للرأي العام والذي كلف سنة ١٩٥٥ تعليم علم النفس الاجتماعي في السربون . كما قامت مؤسسات أخرى افرنسية بعمليات سبر للرأي .

لم تكن السبرات هذه تتناول في الغالب الا عدداً محدوداً من الاسئلة ولا تستهدف الا التنبوء بحادث ليس له الا عدد محدود من الحلول او المخارج الممكنة : انتخاب ما مثلاً . الا انه منذ سنة ١٩٢٥ تقريباً ، درس علماء النفس مناهج استجواب تستخدم عدداً اكبر من الاسئلة ومخصصة لتوضيح ، يكون بطريقة اجلى ، اتجاه الاشخاص ازاء موضوع اكثر تعقيداً : المشكلة العرقية في الولايات المتحدة مثلاً . وطبقت هذه الاساليب في عمليات السبر ، خصوصاً في ايام الحرب. الا انها استخدمت في البداية من قبل مؤسسات ابحاث ، في السيكولوجيـــا الاجتماعية ، على عدد محدود من الافراد ، اكثر تهيئة واستعداداً للخضوع لتجارب طويلة وفي الغالب على جماعات الطلاب . ويستحق تطور هذه المناهج ، في ضوء مانرمي اليه نحن من هدف ، ان يوصف بشيء من الاسهاب .

سبق أن أشرنا ، في الفصل الاول ، الى تجارب فكنر بقصد قياس الاحساس « ولربط هذا القياس بالقياس المادي للمثير . وقد اولدت هذه الأبحاث ، بعد تحريرها من الاطار الميتافيزيقي الذي اقترن بها عند فكنر ، سلسلة من الدراسات تشكل حقل النفسفيزياء الذي يهدف ، وفقاً لرأي ثورستون (١٩٢٦) ، الى درس « الترابط بين سلسلة من المثيرات وسيرورات التميز التي بواسطتها يمكن للجهاز الجسدي ان يفرق ويميز فيما بينهما » .

حوالي سنة ١٩٢٥ ، درس ثورستون ، هذا العالم النفسي الاميركي الذي اتينا

على ذكره في الفصل الثالث بمناسبة التحليل العاملي ، المناهج النفسفيزيائية ووضع عدة مكتوبات عن هـــذا الموضوع . بيّن ان هذه المناهج – المخصصة لتقديم سلالم للقياس تكون سيكولوجية ، ذاتية ، ومتوافقة مع المثيرات الفيزيائيـــة كالأوزان او الأطوال – يمكن ان تقدم أيضاً سلالم لـ « اتجاه » ما ازاء هـــذه المثيرات الاجتماعية التي هي على سبيل المثال : الاعراق ،الجنسيات(القوميات) والكنيسة ، وغيرها ... واذا تهيأت لنـــا سلسلة من الاوزان غير المتساوية ، فيمكن ان يطلب الى الافراد ان يروزوا هذه الأثقال ازدواحياً(لتكوين جميع الازواج الممكنة ضمن السلسلة) وان يصرحوا ، بصدد كل منها ، اي الثقلين يبدو الأثقل . تلك هي طريقة المقارنة على اساس الازواج ، الطريقـــة التي تتيح تكوين السلم الذاتي ، والذي يُرى ، من الناحية النفسية ، متوافقاً مـــع سلسلة الاوزان .

درس تورستون هذا الاسلوب سنة ١٩٢٧ . وفي ذات السنة استعمله في مجال السيكولوجيا الاجتماعية لتحديد رأى ٢٦٦ طالباً من شيكاغو بصدد الخطورة النسبية لعدة جُنح . لقد استبدلت اذن ازواج الاثقال بازواج الجرائم بنظر هذه المجموعة .

كما اتاحت مناهج أخرى بناء سلالم اتجاه اقترحها تورستون ذاته (١٩٣٩ ، الخ .) ، ثم ليكرت R .LIKERT (١٩٣٢) ، وغوتمان (١٩٤١) ، الخ...

٢ – ج . ل . مورينو والسوسيومتريا . – ولد ج. ل. مورينوMORENO في بوخارست سنة ١٨٩٢ . وكان طبيباً للامراض النفسية والعقليـــة في فيينا . تعمق الالمان في الثقافة الفلسفية الموسوعية التي شاهدناها عند مؤسسي السيكولوجيا التجريبية . وعـــانى ، كما عانى البعض منهم ، من أزمة ميتافيزيقية ودينية نتج عنها جديدان مبتكران ، ومختلفان نوعـــاً ما في حقل السيكولوجيا الاجتماعية : السوسيوغرام ، وهـــو اسلوب تقني كمي يتيـــح وصف الوشائج والمنافرات التي توجد بين أفراد جماعة ضيقة ، وذلك عن طريق المناهج الإحصائية

ثم السيكودراما والسوسيو دراما وهما منهجان في علم النفس العلاجي (السيكوتيرابيا) بواسطتها يكون فريق من الأشخاص ، يقودهم مدرب اللعبة المفروض ان يكون « عيادياً » مجرباً الاداة الاساسية في المعالجة .

في نظر مورينو ، الله هو ابداع عفوي كامل . والشخص الانساني لا يحقق ذاته ولايصبح الها ، الا بمقدار ما يصل الى هذه الدرجة الخلاقة . ويصبح من الضروري اذن معرفة العقبات التي تمنع العفوية الابداعية الإنسانية من التحرر:
Das stegreiftheater (1923, who shall survive ?,1934).

من جملة هذه العقبات، تبرز القوى التي تقربنا او تبعد بنا عن الأفراد الآخرين الذين نحن معهم على اتصال ؛ فالسوسيوغرام هو وسيلة تقنية تمكننا من وصف لعبة القوى هذه . فقد استبق ،في سنة ١٩٢٣، بما يسمى بـ « مخطط بياني للوضعية والتفاعل diagramme de posision et d'interaction » ، واتخذ شكله النهائي سنة ١٩٣١). بعرض دراسة سوسيومترية حققت في سجن سنغ سنغ (سبق لـ مورينو ان هاجر الى الولايات المتحدة في سنه ١٩٢٥). تقوم الطريقة هذه ، على طرح اسئلة ، على كل فرد من الجماعة ، هدفها تحديد انسجام وتنافر كل منهم : مع من تريد أن تحقق هذا العمل أو ذاك ؟ مع من تريد ان تسكن ؟ من تختار رئيساً ؟ من ترفض في فريقك ؟ الخ ... ثم استعمل مورينو ايضاً الأجوبة لكي يصور على مخطط بياني ، وبواسطة سلسلة من الإصلاحات البيانية ، شبكة العلائق المتبادلة في الجماعة .

اما المجموعة الأخرى من الأساليب التي يعود الفضل فيها الى مورينو فتهدف الى أبعد من ذلك ، الى افهام ذوي العلاقة وجعلهم يعون مظاهر الموقف الاجتماعي التي لها تأثير عليهم وان يتاح لهم بذلك التحرر منها لبلوغ البداهة الإبداعية الأساسية .

هذه المناهج (« تمثيل الدور » (role playing) ، السيكودراما والسوسيودراما) قد طبقت في فيينا من قبل مورينو بين سنة ١٩٢١ و ١٩٢٥ .

وهكذا نرى ان مناهج مورينو تشكل تجارب تجري على جاعات محدودة وتحاول ان تـُظهر للملأ تلك القوى المؤثرة اما داخل هذه الجماعات واما عليها. ونجد مثل هذه المميزات في اعمال ك. ليفين [لوين] ومدرسته. لكن هـذه الأعمال تسير في خط مختلف تماماً ومن أجل اهتمامات غير اهتمامات مورينو التيولوجية. وهذا بحيث انه إذا وجدت بعض المفاهيم او بعض الأساليب التقنية عند مورينو وعند لوين في الوقت ذاته ، فان هذا الأخير ترك طابعه على تيـار من الأبحاث المستقلة تقرب منما سمي في ما بعد بـ«ديناميكية الجماعات».

٣ – ك. لوين وديناميكية الجماعات.– يعتبر ك. لوين ، وهو سيكولوجي شكلاني ، على أنه كلٌ مُبين ذلك المجموع المكوَّن من الفرد ومحيطه. أن كل تغيّر في أحد عناصر « الحقل » السيكولوجي يغيِّره برمته بالمقابل ، انـه لمن العبث العمل على تحويل أحد عناصره دون التأثير على الموقف كله. هذه التبعية المتبادلة تقتضي وجود قوى يُعطي تفاعلها فكرة عن استقرار او تغيير «الحقل». ويمكن لهذه القوى أن تمثّل برسوم بيانية ، وبرموز من شأنها الخضوع للمعادلات الرياضية ، ويشكّل هذا الجهد المبذول من أجل ادخال اللغة الرياضية في حقل السيكولوجيا احدى ميزات أعـمال لوين « مبادىء الطوبولوجيا النفسية » principles of Topological Psychology ١٩٣٦ ؛ وكتـاب « التمثيل التصوري الذهني وقياس القوى السيكولوجية »[1] ١٩٣٨ .

تدعي مدرسة مورينو السبق الى فكرة تحقيق تجارب حقيقية على جماعات محدودة النطاق موضوعة في ظروف بحيث يستطاع ، وفقاً للمشيئة ، تغيير بعض مظاهر الموقف كله ، وذلك ما استخدمته في سنة ١٩٣٦ . الا أن فكرة هـذه التجارب المستشهد بها غالباً هي التجربة التي حققها لوين مـع مساعديه : ر. ليبيت Lippitt (الذي خلفه على رأس مركز الابحاث المتعلق بدينامية الجماعة ،

---

1 - The conceptual representation and the measurement of psychological forces .

المؤسس سنة ١٩٥٥) ور . ك . هوايت (R. K. WHITE) .

نشرت هذه التجربة سنة ١٩٣٩ ،وكان مؤداها درس السلوك العدواني لأربع مجموعات ، مؤلف كل منها من خمسة أطفال عمر الواحد منهم ١٠ سنوات، كان معلموها يوجهونها ،أثناء نشاط ترفيهي (صنع قناعات ، ونماذج مصغرة ،الخ...) وفقاً لنظم وقواعد مختارة بحيث يوضع كل منها وعلى التوالي ضمن مناخات ثلاثة : ديكتاتوري ، وديمقراطي و « دعوهم يعملون » [كل على مزاجه] . أجريت ملاحظات متعددة حول سلوك الجماعات ولا سيما حول نشأة الاتجاهات العدوانية . لقد اشتهر هذا البحث كثيراً حتى انه ساهم حقاً، أكثر من أي بحث آخر ، في التعريف باسم لوين .

استخدم سيكولوجيون آخرون اختبارات مختارة تهدف الى غاية جد مختلفة . وتقوم هذه (مثلا ، من أجل اختيار أشخاص مؤهلين للقيادة) على دراسة سلوك كل من المشتركين من جماعة ما بدون زعيم ومكلفة ببحث ومناقشة موضوع معين او بالقيام بمهمة ما . وظهرت هذه الإختبارات اول ما ظهرت في في المانيا حوالي سنة ١٩٢٥ في الفحوصات العسكرية . وقد طبقت على عمليات اختيار الضباط في الجيوش الحليفة خلال الحرب العالمية الثانية .

لكن البحوث التجريبية على الجماعات المحدودة النطاق الموضوعة في ظروف مفتعلة[او اصطناعية]، الى حد ما ، ليست الوحيدة التي قام بها لوين وتلاميذه. فالاجراء المسمى من قبلهم بـ « المختبر الاجتماعي » يرتكز على اعتماد التغيرات الملحوظة اثناء محاولة تحويل جارية وفقاً لخطة مدروسة بدقة ، من قبل فريق من الاشخاص يعيشون في وسط طائفة حقيقية من الناس ، اعتماداً يكون بمثابة وسيلة للمعرفة . كما لو كانت القضية تتعلق ، مثلا بتعديل موقف (٤٠ ٠٠٠) مواطن من مدينة معينة تجاه اقليات عنصرية (السود واليهود) (١٩٤٩) .

ثم ان لوين درس القوى الاجتماعية أولاً باستعمال النتائج لغايات عملية . وانه لذو دلالة أن يُعنون انتاجه المنشور بعد وفاته ، والمعتبر كوصيته العلمية ،

بـ « حل الصراعات الإجتماعية » Resolving social confliet (١٩٤٨) .

٤ – التطبيقات العملية للسيكولوجيا الاجتماعيـــة « العلاقات العامــة » في الصناعة .– يشترك لوين مع الكثيرين من علماء النفس الأميركيين بالاعتقاد بان نتائج السيكولوجيا الاجتماعية يمكن ان تستخدم لغايات عملية .

رأينا التطبيقات العملية لدراسة الآراء والاتجاهات. كما شكل النشر والدعاية حقلين آخرين تطبق فيهما السيكولوجيا الاجتماعية . انما تشكل الفوائد العملية المتعلقة بـ « العلاقات الانسانية » ، وخصوصاً في دنيا العمل ، وبسبرات الرأي العام أيضاً ، احدى اهم مجالات علم النفس الاجتماعي التطبيقي .

وكما هو الحال في الاستطلاعات السَّبرية فقد سبقت التقنية ، في هذا المجال ، المعرفة النزيهة المجردة . لقد ظهرت في الصناعة مشاكل لا يستطيع حلها لاعلم النفس التقني المهتم بحسن انتقاء كل فرد على حدة ، ولا المهندسون التنظيميون الذين يدوسون أفضل الأوضاع العملية والمادية للعمل . نشأت هذه المشاكل من جراء العلاقات المتبادلة بين العمال انفسهم أو بـــين العمال والاجهزة الادارية [الكادرات] . وكلهـــا مشاكل تدخل في نطاق السيكولوجيا الاجتماعية قبل ان تضع هذه بالذات يدها عليها . وقــد عمل المناخ الذي اوجدته نظريات وأعمال فرويد والمحللين النفسانيين ، ومورينو و خاصة لوين ، على توجيه الحلول نحو التقنيات الراهنة ، وهي تقنيات « العلاقات العامة » التي ترعرعت ، خصوصاً ، في الولايات المتحدة الأميركية .

ان هذا الترعرع مدين لسلسلة طويلة على الأعمال جرت داخل مجموعة صناعية ، مهمة جداً ، واقعة في جوار شيكاغو ، في معامل هوثورن (Hawthorne) ، وكان ذلك بمشاركة علماء النفس الصناعيين من جامعة هارفرد (اي .مايو ، ف. ج . روتلسبرغر ، الخ ...) ورؤساء المعمل . كانت معامل هوثورن تستخدم ، حوالي سنة ١٩٢٧ ، عندما بدأت هذه الابحاث ، ٢٩٠٠٠ عامل في صناعـــة المعدات التلفونية . ولقد دام الاستقصاء هذ اثنتي عشرة سنة ، حتى سنة ١٩٣٩

وحوى عدة مراحل لحظ تتابعها هذا تغيّراً واضحاً جداً في التوجيه .

ففي البداية ، تناول الدرس خمس عاملات شابات طيلة خمس سنوات في معمل تجريبي خاص . وكان الهدف تحديد الظروف المادية (انارة ، الخ ...) والتنظيم (الاستراحات، الخ ...) التي من شأنها تأمين أفضل انتاجية .لوحظ ، في هذا المعمل ، تحسن عام في الانتاجية استمر حتى بعد العودة الى الشروط المادية الاولى . يعزى هذا التحسن الى « المناخ » الذي شاع في العمل بين العاملات والوكيل . فقد حُمل هذا على الاهتمام ، شخصياً ، بكل عاملة لمعرفة ردود افعالها تجاه التغيرات المدخلة على ظروف العمل . لذا لم يعد بالنسبة إلى العاملات « الزعيم » بل صار الشخص الملاذ، الذي يمكن بثه الشجون والمصاعب ، وبصورة أعم ، ذلك الشخص الذي يمكن الكلام معه . ولوحظ ان تقلبات الانتاجية الفردية مرتبطة بالمصاعب التي تلاقيها العاملات في حياتهن الخاصة .

حملت هذه الملاحظات الأولى المشرفين على التحقيق على المشروع ، منذ سنة ١٩٢٨ ، بسلسلة من المحادثات حول موضوع قيمة ونفع الكادرات في المعمل . ولكن حدث أثناء هذه المرحلة الثانية ما حدث خلال الأولى : أصبحت هذه المحادثات نافعة في حد ذاتها . فقد ساهم مجرد سؤال للعمال والاستماع اليهم على تحسين الجو العام . وفوق ذلك ، بمناسبة هذه المحادثات وهذه المشاركة الحميمة في حياة المصانع فقد تُوصّل الى الاقرار باهمية التشكيل العفوي لمجموعات صغيرة من العمال ، وأهمية اعلام الموظفين الذي لولاه لاصطدمت اجراءات الإدارة وتدابيرها بعداء هو عداء مبدئي .

وبرزت الصفات العامة لتقنيات « العلاقات العامة » في هذا العمل الاول : تركّز الإهتمام على شخص العامل في المصنع وخارجه ، وأهمية الإتجاه العام للكادرات [الاجهزة الإدارية العليا] ، وضرورة تمكين العامل من التعبير عن آرائه بحرية أمام « مستشار » مستقل عن الجهاز الاداري التسلسلي في المصنع مع التأكد من كتمانه لما يقال له ، وهو سعي مبذول من أجل تحسين الاتصالات

ومن ثم الاعلام . ونتعرف ،في هذه الميزات ، على الكثير من الاتجاهات المتعلقة بالعمل والتي أشرنا اليها اعلاه .

كان نمو هذه المناهج ضخماً في الولايات المتحدة . الا أنها وان لاقت ترحيباً في اوساط أرباب العمل ، فقـــد اختلف الحـكم عليها خارج هذه الأوساط . فهي بالواقع ، وكما أشار البعض ، يمكن ان تشكل وسيلة لإخفـــاء اتجاه ومعنى المشاكل الاجتماعية العامة المطروحة لا على مستوى مشروع ، بل على أساس التنظيم الاجتماعي الذي يشكل هذا المشروع قسماً منه فقط . وهكذا يمكن لهذه الاساليب ان تعيق تطور هذا التنظيم الاجتماعي .

بُحِثت ، بشكل خاص ، هذه المناهج ودلالتها في كتاب ج . فرويدمان المسمى : « المشاكل الانسانية في الآلية الصناعية »[1] (١٩٤٦ ، ١٩٥٤) .

٣ـــ السيكولوجيا التاريخية عند ميرسون

من اللائق أن نشير الى « السيكولوجيا التاريخية » التي أسسها حديثاً اي . ميرسون في فصل مستقل . اذ لاشيء مما ذكر بشأن السيكولوجيا الإجتماعية ، يطبق على هذا المنهج الجديد في درس الانسان . ومـــع ذلك فالسيكولوجيا التاريخية ، تشكل ، بمعنى ما من المعاني ، شكلاً آخر من أشكال السيكولوجيا الاجتماعية ، ولهذا نحن نذكرها هنا .

سبق لريبو في مدخله الشهير لكتابه « السيكولوجيا الانكليزية المعاصرة » (١٨٧٠) ان نظر في « علم عبقرية (ايتولوجيا[2]) في الشعوب والاعراق الذي يستمد مواده من علوم اللغة ومن التاريخ » . كما قد اشرنا أيضاً في الفصل الرابع ، الى فرضيات سبنسر وجانيه المستندة الى التطور التاريخي لأجل تحليل الوظائف الذهنية للانسان في ظروفها االراهنة . لكن هذه الفرضيات لا تستند على أية واقعة دقيقة محددة ، ولا على أي أثر تاريخي للتطور الذي تستند اليه . وفي سنة ١٩٤٧ قال اي . ميرسون [3] ، بمناسبة كتابته لمحة عن حياة ب . جانيه بعد موته ،

---

1 - Problèmes humains du machinisme industriel ·

٢ - او : علم الاخلاق الاجتماعية .

3 - I. MEYERSON

هذه الجملة : « ويمكن أن يكون من الواجب أن نفسر مجمل الرسالة التي تركها لنا بما يلي : إقامة سيكولوجية تكوينية تكون تاريخاً كاملاً لسلوك ووظـائف الإنسان النفسانية » .

وفي السنة التالية ، سنة ١٩٤٨ ، ظهرت أطروحته الشهيرة عن « الوظائف النفسانية والإنجازات » [1] ، اقترح على العالم النفساني أن لايغرق بعدئذ في دراسة الأحداث والوظائف البسيطة جداً ، الدراسة التي تخضع لتطبيق مناهج العلوم الفيزيائية ، بل أن « يدرس الإنسان من خلال أمتن انجازاته وأشدهاتمييزاً له ، وذلك كله عبر اعتراف هذا الإنسان نفسه » .

فهذه الآثار الإنسانية : اللغات ، والخرافات ، والأديان ، والفن ، والعلوم هي كلها ذات تاريـخ وهذا . التاريخ يمكن أن يتيح للسيكولوجي أن يَتتبّع تكوين الوظائف النفسانية عند الإنسان . ويعطي ميرسون مثلاً على المنهج المقترح بتقديمه دراسة عن بدايات مفهوم « الإنسان » ، من خلال مجموعة من الوقائـع الاجتماعية ، والأخلاقية ، والدينية ، واللغوية . على هذا يمكن أن تنشأ ، كما كتب ميرسون ، سنة ١٩٥٥ ؛ «سيكولوجيا تبغي درس وفهم الإنسان العياني في زمن ما وفي مكان ما داخل محيطه الحضاري ، سيكولوجيا تعرف الإنسان مختلف ومتعدد ، وإنه يتكوّن ويبني نفسه باشكال مختلفة أيضاً » .

مثل هذه السيكولوجيا ، الطاحنة بسعة الاطلاع والمعرفة المقتضاة من الذين يريدون أن ينصبوا عليها ، توضح بجلاء ، ومن هنا بالذات ، الوظيفة التي ربمـا تقع على عاتق العالم النفسي الحديث : وهي تحقيق دمج تركيبي لأنواع التقدم في حقول المعرفة .

---

1 - Les Fonctions psychologiques et les œuvres.

الخاتمة

كنا قد أشرنا في مدخل هذا الكتاب ، الى التفتت الحاصل في مجال علم الفنس، وقد أمكن خلال العرض أن نبرز واقعة هذا التفتت ، وربما ،بعضاً من أسبابها، وهي ، قبل كل شيء : اتساع حقل العمل ، ثم تزايد عدد الزراعيين فيه. ولكن هل يمكن التأسف على الوحدة التي عرفها علم النفس عندما كان هدفه الوحيد ، تقريباً ، درس الاحساسات والانعكاسات والإدراكات في ليبزيغ على يد فوندت ؟

يبدو لنا هذا التطور من الوحدة الى التفتت موسوماً بطابعين مميزين هما : سقوط النظريات الكبرى العامة تدريجياً ، في مطاوي النسيان ، هذا على صعيد الأفكار ؛ اما على صعيد الوسائل التقنية فان ضروب التقدم المتعددة التي تحققت في كل ميدان ، تبدو وكأنها أعطت أشكالاً عديدة جداً ، لذلك المنهج التجريبي والعلمي الذي يفرضه الاحتياج اليه ، اليوم ، بشكل جديد حتى لم يعد وارداً اطلاقاً ، كما كان الأمر يجري في اواخر القرن الماضي ، الانتهاء اليه انتهاء صريحاً.

أو يجب أن نأسف اليوم لكون علماء النفس لم يعودوا يستلهمون ، كما في السابق ، عند بحثهم عن الفرضيات والمناهج ، المبادىء العامة التي تكفي عموميتها لأن تجعل منها مبادىء مشتركة فيما بينهم ؟

في هذا الصدد ، يمكن لأي فرد ، ان يدلي برأيه .

واذا أجيز لنا الافصاح عن رأينا الخاص ، فسنعترف بموقفنا الارتيابي ازاء هذه النظريات التي تهدف الى تقديم أسس مشتركة لا لكل علم النفس فقط بل ولكل العالم أيضاً . فهذه العمومية البالغة المدى في صياغة النظريات تضعها في مأمن من كل تكذيب دقيق وترخي العنان لموهبة كل مؤول قد تعجبنا أحياناً هذه الموهبة الابداعية . ولكن ماهي منفعة مثل هذه الألاعيب الذهنية ؟

فالذين انغمسوا فيها ، منذ أيام فيكنر بالذات ، قد ساهموا أحياناً مساهمة مهمة ، في تحسين المناهج والمعارف الموضوعية ، في حقل علم النفس . انما تدل

واقعة امكانية بعث « وتفسير » بعض الانجازات المتواترة ، بواسطة النظريات العامة المتباينة والمختلفة تماماً ، دلالة واضحة ، على أن هذه الانجازات يمكن ان تفصل بالفعل عن هذه النظريات ، حتى ولو انها تشكل بالنسبة الى بعض المفكرين حافزاً ضرورياً ماساً ..

لمثل هذا السبب رفضنا نحن أيضاً أن نعتقد بأن علم النفس قد بقي له ما يكسبه ان أقام وحدته على منهج تجريبي مستند الى المبادىء المتمادية في عموميتها . صحيح أن هذه المبادىء للمنهج قد اجمع على الاقرار بها غالبية علماء النفس ، ولكنها عمومية الى حد أن علماء النفس باتوا يشتركون بشأنها مع سائر العاملين في حقول العلم .

وفعلا فان كل هذه المبادىء ، النظرية او المناهجية ، التي يبدو أنها تظهر ، بصورة جازمة ، ومنذ البداية ، وحدة علم النفس – ربما تشكل العائق الأكيد بوجه قيام أي تقدم حقيقي نحو هذه الوحدة . فغالبا ، اعاق الانخداع بالحلول الكلامية ، التعميق بالقضايا العلمية فحال دون حلها حلا صحيحاً ، وذلك عبر تاريخ العلوم كله .

من الصعب جداً على من لعب دور المؤرخ ان لا يخضع لإغراء القيام بدور المتنبىء . ربما كان يجب محاولة البحث عن الطريق الى هذه الوحدة في طريق يكون غير رد الفعل على تنويع وتفرّق المشكلات والمناهج . بل ربما يكون الامر ، على العكس من ذلك ، يكمن في وجوب التمادي ، جهد المستطاع ، في هذا التنويع والتشتيت . وهذا ، الى درجة تظهر عندها ، في كل ميدان من ميادين علم النفس ، المشكلات الأساسية واشكال الفكر الاكثر تلاؤماً واقتداراً على حلها . ولسوف تمكن عند ذلك ، ربما ، ملاحظة ضروب من الوحدة المتعددة بين المحتوى والشكل . وانه لفي هذا الجهد المبذول بغية هضم وتمثل الاختصاصات المتعددة قد تمكن الوسيلة الكأداء لفهم احسن لوحدة ولدور علم النفس ومن ثم لفهم أحسن للانسان .

فهرس

منشورات عويدات ١٩١ / ٢ / ١٩٧٢

المطبعة التجارية ـ بيروت

مكتبة الفكر الجامعي

نقـــد أدبي

- تاريخ الرواية الحديثة — البيريس
- الاتجاهات الادبية في القرن العشرين — البيريس
- ادباء من الشرق والغرب — عيسى الناعوري
- المذاهب الادبية الكبرى — فيليب فان تيغيم
- معجم الادب المعاصر — بيار دو بواديفر
- الادب الفرنسي الجديد — غايتان بيكون
- الرومنطيقية في الادب الفرنسي — سولنيه
- تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين — بيار هنري سيمون
- اثر المعدة في الادب العربي — بهيج شعبان
- الادب العربي الحديث — الدكتور علي شلق
- بحوث في الرواية الجديدة — ميشال بوتور
- تاريخ الادب الروسي — مارسيل اهرار
- دفاعا عن اللغة العربية — الدكتور كمال الحاج
- القلق في الثقافة — محمدسعيد الجنيدي
- اندريه جيد — مارك بيغبيدير

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

مكتبة الفكـر الجامعي

علوم تطبيقية وتقنية

• معايير الفكر العلمي	جان فوراستيه
• الامومة والبيولوجيا	جان روستان
• السدود	مارسيل ماري
• تاريخ الطيران	ادمون بتي
• الانســـان	جان روستان
• انابيب البترول والغاز الطبيعي	ادمون بتي
• التلفزيون الملون	روبير غيليان
• النسبية	بول كوديرك
• الدماغ الالكتروني	لوريه وارنيون
• الموجب الصناعي	ليونيل ستوليرو
• تقنية السينما	لــو دوكا
• الآليات الزراعية الحديثة	طوني بالــو

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

باشراف موريس كروزيه

١ ــ الشرق واليونان القديمة
٢ ــ روما وامبراطوريتها
٣ ــ القرون الوسطى
٤ ــ القرنان السادس عشر والسابع عشر
٥ ــ القرن الثامن عشر
٦ ــ القرن التاسع عشر
٧ ــ العهد المعاصر

ثمن المجموعة كاملة ٣٥٠ ليرة لبنانية

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

Maurice REUCHLIN

HISTOIREE
DE LA PSYCHOLOGIE

Texte traduit en arabe
par
Ali MOUKALLED & Ali ZEYOUR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

مكتبة الفكر الجامعي

علوم اجتماعية	ق. ل.
● مدخل الى علم الاجتماع – أرمان كوفيليه	٥٠٠
● المجتمع الصناعي – ريمون آرون	٥٠٠
● صراع الطبقات – ريمون آرون	٥٠٠
● في الدكتاتورية – موريس دوفرجيه	٤٠٠
● القنبلة الذرية ومصير الانسان – كارل ياسبرس	١٠٠
● الضمان الاجتماعي – أندريه جيتنغ	٢٠٠
● الجماعات الضاغطة – جان مينو	٣٠٠
● سيكولوجيا الشعوب – اميل ميروغليو	١٧٥
● الثقافة الشعبية في فرنسا – شاربنترو وكايس	٤٠٠
● أمل القرن العشرين الكبير – جان فوراستيه	٥٠٠

منشورات عويدات
بيروت - لبنان



الثمن ٥ ل. أو ما يعادلها